روايات عبير

NOOR



مارغريت روم

سيّد الرّعاة

١٠٦

NOOR

١ ـ الاعلان القدري

بيدين مرتجفتين، فتحت سيرينا صفحة الاعلانات في صحيفة واسعة الانتشار وراحت تبحث عن الاعلان الذي اثار مناقشات حماسية في المكتب حيث تعمل. وكان ذلك اثناء فترة الغداء. واذا بعينيها تحدقان باعلان كتب بالحروف السوداء العريضة. وتذكرت المشهد حين صرخت جوي، صغيرة الموظفات عندما قاطعت الحديث وقالت والدهشة تملأ وجهها:

«آه! شيء لا يصدق! انظروا الى هذا الاعلان، هنا فوق... في أعلى الصفحة...!

انزعجت بولا فيكرز من هذا التصرف الوقح وهزت كتفيها وقالت بلهجة لاذعة وناعمة:

«هل يجب عليك ان تقاطعينا كلما قرأت اعلانا عن حفلة موسيقية صاخبة؟»

اجابت حينذاك جوي قائلة:

«تبا لموسيقى البوب الصاخبة! في كلّ حال، لا يمكنك ان ترشحي نفسك، فالمطلوب فتاة شقراء ذات عينين زرقاوين. . .»

سألت بولا ببرود:

«ترشيح نفسي؟ ولأي سبب؟»

اطلقت جوي زفرة انزعاج وقالت:

«لهذه الوظيفة! لكن مهما كان الامر فالوظيفة لا تناسبك.»

وبفضول قوي اقتربت بقية الفتيات واعلن معا: «ما القضية؟»

ناولتهن جوي الجريدة وقرأت احداهن بصوت ساخر وفي بطء الاعلان الذي يقول:

«عرض لفتاة انكليزية، شقراء وحسب، وظيفة تؤمن لها استقرارا ماديا طيلة حياتها. يجب ان تكون حافظة سرّ ومطيعة ووديعة، تقبل الطلبات لمن تبدي استعدادها لتحمل اعباء الاسرة. ولأخذ موعد، الاتصال برقم الهاتف اعلاه».

بعد الدهشة، دوت قهقهة عامة داخل المكتب. واكدت احدى الفتيات قائلة:

«في ايامنا هذه، هذا النوع من الاعلان لا يمكنه ان يخدع اي فتاة مهما كانت. لا شك ان صاحب الاعلان فقد عقله. . .»

قالت بولا:

«هذا رأيي، أنا ايضا. ربما يعتقد انه بامكانه شراء كل ما يريده بالمال. ربما كان صاحب الاعلان مهووسا يبحث عن فتاة شقراء

ليجدد حريمه!»

اجابت فتاة اخرى:

«لا! انها مزحة! حتى المهووس لا يمكنه ان يجهل ان نساء اليوم لسن ساذجات وخاصة في لندن!»

الضحك يعلو من جميع الاطراف. وجوي الحالمة كانت تحدق في سيرينا بامعان ثم قالت:

«لا اعرف. ربما سيرينا تتمتع بهذه المواصفات. . .»

كانت سيرينا مسترسلة في افكارها، فلم تلتقط من الحديث الجاري سوى القليل. فاهتمامها من نوع آخر، اذ كانت تتساءل بقلق كيف ستتمكن من دفع المصاريف الباهظة التي تفرضها عليها دار الحضانة حيث وضعت اختها الصغيرة ويندي.

وكانت مديرة دار الحضانة قد اعلنت لسيرينا صباح اليوم قائلة:

«اني آسفة حقا يا آنسة باين. نحن مضطرون ان نزيد عليك جنيها استرلينيا واحدا كل اسبوع، وذلك ابتداء من الاسبوع المقبل. انت تعرفين ان الاسعار ترتفع في جميع الميادين. . . انه التضخم المالي. . . هذا يؤسفني لكنه اصبح لا بد منه».

وخلال يوم بكامله كانت سيرينا تطرح على نفسها الاسئلة المختلفة. اين ستجد هذا المبلغ الاضافي؟ الم يسبق ان خفضت مصاريفها الى أدنى درجة وخاصة في ما يتعلق بالغذاء؟ كانت تبدو سريعة العطب من شدّة نحول جسمها، وكانت تتلقى الانتقادات بهذا الشأن من معظم العاملين معها.

فجأة تنبهت سيرينا الى ما يدور حولها، فقد ران الصمت بعد ملاحظة جوي. وشعرت بثقل النظرات الموجهة اليها، اذ يبدو انهن

ينتظرون ردها.

«كيف؟... عما تتكلمن؟ المعذرة، فلم اكن اصغي...»

لم يرد احد، باستثناء بولا التي هزت كتفيها واكتفت بالتذكير قائلة:

«وربما انت على حق، يا جوي. قيل لي، انه في الاسبوع الماضي، لبت سيرينا دعوة هذا الرجل الجذاب الذي يدعى جايسون...»

احمرّت خدا الفتاة واعلنت بصوت يرتجف غضبا: «ولم لا؟ لقد امضيت برفقته سهرة ممتعة، وبرهن السيد جايسون عن لطف كبير في ان يدعوني الى منزله».

قالت لورا باستغراب:

«تسمين ذلك لطفا! كانت تجول في رأسه افكار مختلفة... لا اعرف كيف تصرّفتِ معه، لكن بالنسبة اليه، كان لقاؤكما خيبة واخفاقا تامين، حتى انه صرح في اليوم التالي انه للمرة الاولى في حياته يحار في معاملة امرأة من هذا النوع المتحفظ».

احست سيرينا بقنوط وجرح شعورها لسماع ضحكات زميلاتها في المكتب، ضحكات ساخرة، هازئة. ولما بدأت الفتيات بالاستعداد لممارسة عملهن من جديد بعد استراحة فترة الغداء، اقتربت منها اكبرهن سنا وقالت:

«لا تتوتري لهذه الامور التافهة. ربما انك ما تزالين ساذجة، لكن هذه البراعة التي تتحلين بها هي مصدر قوتك...»

انها الآن في بيتها وعيناها مسمّرتان في الاعلان وشعرت بالاشمئزاز لتذكرها ذلك الحوار الذي جرى ظهر اليوم في مكتب عملها. وفجأة، نسيت كل شيء اذ بدأت وبنتي بالبكاء. اسرعت

سيرينا نحو سرير الطفلة لتؤانسها بسرعة لئلا يعلو صراخها وتزعج الجيران. كانت اسنانها تبدأ بالبروز ولا شيء يسكّن آلامها وخاصة في الليل.

حملت الطفلة وراحت تذرع الغرفة ذهابا وايابا، تؤرجحها وتتحدث اليها وشوشة. ولحسن الحظ خففت حدة صراخها وتدريجا هدأت الطفلة، غير ان سيرينا استمرت في المشي طولا وعرضا لكن ببطء خشية ان تعود الفتاة الى الصراخ وتقلق راحة العمارة.

وراحت افكارها تأخذها بعيدا، الى الوراء الى قبل سنة، الفترة السعيدة حيث كان مستقبلها يبشّرها بشتى الاحلام الجميلة. ولم يبق من هذه السعادة الماضية الاّ ذكرى بعيدة...

وراحت تتخيل تلك الليلة عندما جاءت والدتها في المساء لتخبرها بقليل من الانزعاج والخجل:

«سيرينا، والدك وانا لدينا خبر سعيد نريد ان نزفه اليك».

«وما هو؟»

وكانت سيرينا في هذه اللحظة تتصفح الاعلان في احدى الصحف المحلية، بعد ان نالت شهادة السكرتاريا بتفوق. فقالت لها والدتها:

«ضعي هذه الصحيفة جانبا، يا صبيتي، واصغي اليّ بامعان»

رفعت سيرينا عينيها ولاحظت ملامح والدها المنفعلة، فوضعت الصحيفة جانبا وسمعت والدتها تقول لها:

«لدى والدك شيء مهم يريد ان يفصح لك به...»

قال الوالد للوالدة:

«لا، قوليه انت».

«لا ، انت».

نهضت سيرينا من مقعدها وقالت باستغراب:

«آه، باسم السماء! عليكما ان تقررا من منكما سيعلن النبأ، او ربما بالاحرى يمكنكما ان تعلناه معاً.

وهذا ما فعلاه. اعلنا في صوت واحد، مليء بالفخر.

«اننا ننتظر مولودا سعيدا.»

وفي ذهول حقيقي، حدقت سيرينا فترة طويلة في عيون والديها، كأنهما آتيان من كوكب آخر. كانت عائلتها الصغيرة المؤلفة من ثلاثة اشخاص على قدر واسع من الانسجام والاتحاد، وظلّت على ما هي مدة ١٩ سنة وهي الآن مندهشة اذ تراها تتسع لمخلوق جديد آخر. لكنها سرعان ما ندمت على انفعالها الاناني لمجرد رؤية خيبة الامل ترتسم على وجهي والديها فأسرعت بالقول لتطمئنهما قائلة:

«هذا خبر رائع! حلمت مرارا ان يصبح لي اخ أو اخت».

تنفست والدتها الصعداء واطلقت زفرة بكاء وفرح.

فامسك والدها بكتفي زوجته وضمها اليه بحنان وقال:

«الم اقل لك انها ستسعد للخبر؟»

غير ان هذا الفرح بدأ يتخلله بعض القلق، في الاشهر اللاحقة. واصبحت والدتها تزور الطبيب مرات عديدة كلما اقترب موعد الانجاب. حتى افصح الطبيب مؤخرا عن تخوفه من خطورة الوضع.

ولما حان موعد الانجاب، انتظرت سيرينا مع والدها في قاعة الانتظار في المستشفى ساعات طويلة والهم يكبرهما. اخيرا جاء الطبيب عابس الوجه واعلن الخبر الرهيب:

«اني آسف، يا سيد باين ويا آنسة سيرينا، جهدنا باءَ بالفشل... لكننا تمكنا من انقاذ الطفل...»

لم تنس سيرينا ابدا تعبير وجه والدها الكئيب الذي ارتسم في هذه اللحظة وظلّ اسابيع طويلة بعد وفاة زوجته في حال تشبه الخرس، يرد بالرغم منه على اسئلتها. وبعد فترة غير بعيدة جاء شرطي ليعلمها بأن والدها قتل في حادث سيارة.

لم تسنح لها الفرصة للحسرة والحداد اذ ان ويندي الصغيرة كانت بحاجة الى عناية واهتمام في كل لحظة.

وبدأت المشاكل تنهمر عليها. فاضطرت الى ان تبيع المنزل ومحطة الوقود حيث عمل والدها سنوات عديدة، لتفي الديون والرهونات الكثيرة، ولم يبق معها الا المال الكافي لتسديد المصاريف الضرورية، الى ان وجدت غرفة صغيرة استأجرتها ودار حضانة ويندي قرب مركز عملها، وهذا لم يكن باختيارها بل اضطرت الى قبوله، لأن الحاجة المادية بدأت تهدد استقرارها...

وضعت سيرينا ويندي في سريرها. ثم جلست على الكرسي امام الطاولة وراحت تقوم بحسابات المصاريف المتوجبة عليها.

وخرجت بنتيجة صعبة، اذ عليها ان تخفف مصاريفها الى ادنى درجة لتتمكن من دفع اجرة دار الحضانة... منذ الآن، لن تذهب عند المزين، ولن تستعمل ادوات الزينة وستصلح احذيتها قدر امكانها حتى لا تحتاج الى شراء حذاء جديد. ولحسن حظها، فشعرها الاشقر الطويل مجعد بشكل طبيعي وليس بحاجة الى شامبو خاص به.

لكن لا يمكنها ان تحرم نفسها من الشورباء وسندويش الغداء،

والا لما تمكنت من التركيز. ورغم ذلك يشكو مديرها من النسيان الذي اصابها اخيرا وهي تعرف ان ذلك عائد الى تغذيتها البسيطة والزاهدة.

حالمة، وجهت نظرها باتجاه ويندي. وبفخر راحت تتأمل فرحة، خديها البارزين الحمراوين وجسمها الممتلىء وتبتسم. فجأة عبست لدى سماعها صراخ الطفلة المتألمة. وبعد بضعة لحظات دوى صراخها في ارجاء الغرفة.

«آه، لا! عادت الى الصراخ من جديد يا الهي!»

تناولت سيرينا اختها بين ذراعيها لكن الطفلة لم تتوقف عن البكاء. ولم تكف عن الصراخ الا بعد ربع ساعة، بدت لها دهرا طويلا. وكانت تهم بوضع الطفلة في السرير من جديد حينما سمعت طرقا على الباب، فتحت سيرينا الباب وامام العتبة وقفت صاحبة الملك حمراء غضباً.

تلعثمت سيرينا وقالت في حيرة وارتباك:

«انا متأسفة يا سيدة كولينز. . .»

اعلنت صاحبة الملك في صوت قاطع:

«انا كذلك، يا آنسة باين. عليك ان تغادري هذه الغرفة خلال اسبوع من الآن. لقد تحملت الكثير، لكن الامر لم يعد يطاق ولا يمكنه الاستمرار. جارك ينزعج من بكاء الطفلة المستمر ويهدد بالذهاب. انا آسفة، صديقتي، لكن سأضع هذه الغرفة برسم الايجار ابتداء من نهار السبت المقبل!»

ادارت ظهرها وولت تاركة سيرينا من دون صوت. اغلقت الفتاة الباب بهدوء. الآن ويندي نائمة بسلام. نظرت سيرينا في امعان

وحنان الى وجه اختها البريء فاغرورقت عيناها بالدموع واسرعت تضعها في السرير. ثم جلست الى طاولتها وخبأت وجهها بين ذراعيها وراحت تبكي، تاركة العنان لحزنها. . . لقد صبرت كثيرا خلال هذه السنة الاخيرة وبات حزنها نهرا من الدموع. القدر يتلذذ في تدميرها وتفتيت اندفاعها وانهيار اعصابها. فحتى الآن جابهت الامور بشجاعة، لكنها اليوم تبرح بفشلها.

في احد الايام، اقترحت عليها بولا ان تضع الطفلة في دار الايتام. لكن تلك الفكرة كانت ترعبها. اما الآن فلا بد لها من الرضوخ للأمر الواقع فهي ترى ان هذه الفكرة هي الحل الاخير لمشاكلها.

وفي بطء رفعت رأسها وراحت تنظر في ارجاء الغرفة ذات الاثاث الحقير. بساط بال ومقاعد مهترئة، وسرير ومغسلة وغاز صغير. لكن بالرغم من مأساتها كانت تمثل هذه الغرفة كل استقرارها، اذ كانت تؤويها هي وويندي. . . وويندي. . . لا يمكنها ان تقتنع بضرورة التخلي عنها انه اسوأ الحلول. ورفضت هذه الفكرة بقوة اليأس.

كانت الصحيفة موضوعة على الطاولة فتناولتها سيرينا وراحت تتصفحها بعين يائسة. ومرة اخرى وقع نظرها على ذلك الاعلان الغامض. فجأة توقفت على جملة تحتوي كلمات قدرية:

«تقبل الطلبات للواتي يتحملن اعباء الاسرة.»

وفي عنف امسكت الصحيفة وهبطت السلالم بسرعة وتوجهت الى حيث الهاتف. وبيدين مرتجفتين اضطرت ان تدير الرقم ثلاث مرات قبل ان تنجح. وبصوت عديم الثقة طلبت موعدا فاعطاها المتكلم عنوانا قبل ان يقفل الخط بقوة. ظلت مسمرة النظر في الاعلان حيث

كنت مسرعة: الموعد: السبت الثانية والنصف ظهرا في فندق امبريال غرفة ١٠٠٥،

كان ذلك نهار الغد!

٢ ـ الشيخ وبلاده

لم تشعر بأي حيرة لاختيار ملابسها لأنها ارتدت المجموعة الانيقة الوحيدة التي تملكها. انها كناية عن تنورة وسترة، ذات لون بني غامق، يناقض بشرتها الفاتحة ولون شعرها الطويل الذهبي الذي ينسدل امواجا على كتفيها. وارتدت تحت السترة قميصا من اللون الكريمي. غير انها قطبت حاجبيها عندما نظرت في المرآة. لا شيء في هذه البزة الكلاسيكية بلفت الانظار. واذا صدق ما قالته زميلاتها من ان صاحب الاعلان ليس سوى ثري مضجر، سيكون حظها قد خانها.

«اللواتي يتحملن اعباء الاسرة». هذه الكلمات تتمايل في راسها. اذا كان الرجل الذي ستلتقي به يفي بوعده واذا حصلت

على هذه الوظيفة الغامضة، ستضمن مستقبل الطفلة. القت سيرينا نظرة الى ساعتها. لم يبق لها سوى عشرين دقيقة للوصول الى الفندق. ستصل سيارة التاكسي في أي لحظة الآن. وبعدما نظرت مرة اخرى الى المرآة، حملت حقيبة يدها وعلقتها بكتفها وهبطت السلالم. أوقفها التاكسي امام باب فندق امبريال الرئيسي. وكانت مبكرة فتوجهت الى مكتب الاستقبال بانفاس متقطعة من شدة الانفعال. طلبت ان يصار الى اعلام الغرفة رقم ١٠٠٥ بحضورها. كان الموظف يراقبها خلسة. فجأة اشتعل وجهها احمرارا، لأنها انتبهت انه لا شك بان موظفي الفندق على علم بسبب وجودها هنا.

وخلال بضعة دقائق بدت لها طويلة، جاء صبي الفندق وطلب منها ان تتبعه. شعرت بقدميها ترتخيان فجأة، لكنها تمكنت من عبور البهو المفروشة ارضه ببساط واسع مزين بالوان ورسوم فنية. ولما انفتح باب المصعد من دون احداث ضجة، خيل اليها انها تغادر العالم المتزن الواضح، لتدخل عالماً آخر، غريباً ومروّعاً. انها تنتمي الى عالم حيث لا يمكن لأي انسان ان يخطر في باله شراء انسان حي، حسب ما يمكن للاعلان ان يفصح عنه. فهناك وعد بالاستقرار «طيلة حياتها» وبالتالي فهي اسيرة سجن ذهبي... لكن ماذا سيحصل في مقابل ذلك؟

الغم يضغط على حنجرتها وهي تحاول جاهدة ان تنطق من دون جدوى. الطوابق تمر امامها وهي عاجزة ان تطلب من صبي الفندق ان يعيدها الى المدخل. توقف المصعد وخرج الصبي امامها. تبعته وقدماها تدوسان البساط الازرق السميك بينما كانا يتوجهان نحو الغرفة القدرية. اخيرا توقفا امام غرفة كتب على بابها رقم ١٠٠٥.

تلعثمت وهي تفتش في حقيبتها عن بعض العملة:

«شكرا...»

لكن صبي الفندق رفض البخشيش وعاد ادراجه نحو المصعد بعد ان رمقها بنظرة ازدراء. قربت سيرينا يدها لتطرق الباب، ثم عدلت في اللحظة الاخيرة. وفجأة تذكرت حكايات تجارة الرقيق الابيض التي تداولتها رفيقاتها في العمل... قصص الفتيات اللواتي يلبين مثل هذه الاعلانات ومصيرهن الاسود. همست لنفسها وهي تهز قدميها اضطرابا:

«سيرينا باين، انت حقا مجنونة! لماذا تجازفين بنفسك؟ لا شك ان هناك وسائل اخرى للخروج من وضعك المالي. في ايامنا هذه، من المستحيل ان يسمح للناس ان تعيش من دون سقف: فالمساعدة الاجتماعية موجودة حقا غير انها استاءت لفكرة وضع ويندي في دور الايتام، وبعد تردد طرقت الباب. وفي الحال فتح الخادم ودعاها الى الدخول بلياقة كبيرة. كانت الغرفة واسعة واثاثها فاخرا. فعادت انفاسها تتوتر هناك. مقاعد مريحة وطاولة مستديرة موضوعة فوق بساط ابيض سميك. ولوحات ونحوت ومرايا ذات اطارات مذهبة وكلها تزين الجدران المغلفة بالقماش الازرق الفاتح. وبالرغم من الشمس التي تخترق اشعتها الزجاج الواسع، اكتشفت سيرينا بدهشة وجود مدفأة يشتعل داخلها الحطب الكبير.

اقتربت بخطى مترددة وتوقفت امام احد المقاعد بينما توارى الخادم عن الانظار. تقلصت سيرينا لا تعرف بماذا تفكر. لكنها شعرت بالارتياح وهي ترى رجلا عجوزا يدخل الغرفة ويقول:

«آنسة باين؟»

كان صوته رنانا مع لكنة خفيفة. في بادىء الامر، اعتقدت انه فرنسي الجنسية، لكنها غيرت رأيها عندما سمعته يسأل في تهذيب رفيع وعزة نفس ويقول:

«هل تتفضل السينيوريتا بالجلوس؟»

جلست سيرينا في المقعد وراحت تجوب بنظرها وجه هذا العجوز وملامحه النبيلة والرفيعة: عيناه ثاقبتان... وتمكنت سيرينا من ان تقرأ فيهما قليلا من الاستغراب، غير ان فمه يعبر عن عطف وتسامح. وفكرت بأن شعره الابيض لا شك انه كان في الماضي اسود كاملا. غير انه مازال يحافظ على قامته الطويلة ورشاقة رجل شاب.

انتظرت سيرينا منه ان يتابع كلامه. وبدأ غمها وتخوفها وقلقها بالانحسار رويدا رويدا عندما لاحظت انه يبحث عن الكلمات المناسبة. ومن دون اي شك هذه خبرة جديدة على هذا الرجل النبيل الواثق من نفسه. وكي تشجعه ابتسمت له فأسرع بالقول:

«قبل كل شيء، يا سينيوريتا، اسمحي لي بان اقدم نفسي، انا الكونت البيرتو دي فالريفيا. وانت تدعين سيرينا. اليس كذلك؟»

قالت بصوت غير واثق:

«نعم، حضرة الكونت...»

قام بحركة سلبية وقال:

«يكفي ان تناديني، دون البيرتو، يا عزيزتي. فانا انما افصحت عن لقبي، في حال اردت ان تستعلمي عني».

قالت في عصبية خفيفة:

«شكرا، دون البيرتو. لكن لن اجرؤ ابدا ان اقوم بشيء كهذا...»

قال رافعا حاجبيه:

«ولم لا؟ انت لا تعرفين شيئا عني، الا اني ابحث عن فتاة انكليزية. وقد كتبت الاعلان في كلمات تدعو الى الغموض والالتباس، الا تعترفين بذلك»

وافقت سيرينا بهزة من رأسها وخاطرت تقول:

«بالمناسبة، احب ان اطرح عليك بعض الاسئلة».

«سأرد عليها بكل طيبة خاطر. لكن قبل كل شيء، سنفعل بما ينّص علينا التقليد البريطاني ونتناول قليلا من الشاي».

رنّ الجرس فحضر الخادم في الحال.

«شاي للآنسة، يا بيدرو، ولي ايضا... تقليدكم هذا يدل على لطف ولباقة».

احنى الخادم رأسه وخرج من الغرفة. كان دون البيرتو يراقب سيرينا في امعان دقيق. وبعدما تفحصها من قدميها الى رأسها، اشتبكت نظراته بنظراتها وتمكنت من رؤية الاعجاب في عينيه. وتلون وجه سيرينا قليلا. فقال: «سينيوريتا، ارغب في معرفة ما الذي لفت نظرك في هذا الاعلان. هل هذا يعود الى احتمال ان تتجردي نهائيا من اعبائك المادية؟»

ابتسم في سخرية وتابع يقول:

«خلال الايام الاخيرة، جلست مكانك نساء كثيرات، شابات... كلهن من الجنسية الانكليزية، شقراوات، طيعات ومحتشمات - حسب تصريحهن - ومن دون استثناء كل واحدة صرحت ان السبب الذي من اجله طرقن هذا الباب هو الحياة المترفة والاستقرار المادي طيلة حياتهن. غير اني اشعر، أن الفضائل

التي يتحلين بها كانت خاطئة مثل الوان شعرهن. صحيح اني رجل عجوز، وتقليدي، ولكن مازلت قادرا على الحكم اذا كان الشعر مصبوغا ام لا!»

احتجت سيرينا رافعة ذقنها في حماس وقالت:

«لون شعري طبيعي، يا سينيور. واريد ان تعرف شيئا مهما، اذا كنت ابحث عن الحياة السهلة والاستقرار المادي، فليس ذلك من اجلي».

قال باستغراب:

«هكذا اذن! في هذه الحال، هل باستطاعتي ان اسألك من اجل من تنشدين الاستقرار»

ترددت لحظة، ثم اعلنت تقول:

«ذكر الاعلان ان الطلبات مقبولة للواتي يتحملن اعباء الاسرة. معي، طفلة، عمرها سنة واحدة، وصاحبة الغرفة التي اسكنها انذرتني بضرورة مغادرتها لأن الطفلة غالبا ما تبكي. لأنها تتألم من اسنانها التي بدأت تنشق. واضافة الى ذلك، علمت البارحة ان مصاريف دور الحضانة حيث ارسلت ويندي ارتفعت اسعارها. واخشى الا اقدر على مجابهة الوضع. هذا ما دفعني للمثول هنا اليوم. اني ابحث بشكل يائس عن سقف يمكنه ان يؤوينا، انا وويندي. واذا لم اتمكن من ايجاده ساضطر الى وضع ويندي في دار للايتام. لكني مستعدة لكل شيء كي اتحاشى ذلك. مستعدة لكل شيء!»

وفي بطء رفعت عينيها. كان العجوز يحدق فيها، ليس في تسامح، بل في احتقار. فقطّب حاجبيه وقال في سخرية:

«وانا الذي اعتقدت ان ابحاثي قد اعطت ثمارها في النهاية. لقد

تأكدت منذ النظرة الاولى انك الوحيدة التي تلائم هذه الوظيفة. تبدين فتاة بريئة، سليمة النية... لكن، مع طفلة، بعد كل شيء!»

اطلق زفرة عميقة ثم اضاف:

«حتما، الاخلاق تغيرت كليا».

احمرت وجنتا الفتاة، فنهضت فجأة وكانت تغلي من الغيظ قائلة:

«ليست ويندي ابنتي، بل شقيقتي! كيف بامكانك ان تعتقد ان...»

ظل دون البيرتو جامدا، ثم هز رأسه بحزن وقال:

«يا عزيزتي، لم اكن انتظر منك ان تجدي عذرا لما قلته.»

«لكن، ما تقول خطأ. ولست بحاجة الى اختلاق الاعذار!»

ضربت قدمها ارضا بغضب. نسيت خجلها وقالت بصوت مرتفع:

«كنت في التاسعة عشرة من عمري عندما عرفت والدتي انها تنتظر مولودا سعيدا. وفترة الحمل كانت قاسية وخطرة، بسبب كبر سنها... لست قادرة ان ادخل بالتفاصيل الآن... كل ما بوسعي قوله انها ماتت في الوقت الذي انجبت خلاله ويندي. وبعد اشهر، قتل والدي في حادث سيارة. مذ ذاك وانا اهتم باختي قدر المستطاع. للأسف معاشي غير مرتفع ويستحيل علي احيانا ان اوازي الدخل مع المصروف. لهذا السبب انا هنا... اعلانك دفع بي الى امل الخروج من هذا الوضع. ربما الى حياة جديدة ستنفتح امام ويندي. غير اني لم آت الى هنا من اجل الحصول على حياة مترفة او من اجل الارتزاق. ببساطة، انا ابحث عن مكان يمكنني

فيه ان اربي ويندي من دون ان اضطر الى اسكاتها كلما بكت، الى مكان حيث يمكنها ان تتفتح وتعيش حياة طبيعية. هذا ما ارغبه، يا سينيور، وهذا ما سأرغبه دائما! الى اللقاء...»

ارتدت قفازيها وهي على وشك الانهيار في البكاء وانهت كلامها قائلة:

«لا سبب لاستدعاء الخادم، اعرف الطريق جيداً».

في سرعة ورشاقة بالنسبة الى رجل من سنه، اقترب دون البيرتو منها وقال:

«لا تذهبي، يا آنسة، ارجوك. لقد اسأت الحكم عليك... ارجوك ان تقبلي اعتذاري. هل تتشرفين بالبقاء؟ لدي ما اقوله لك.»

... وكان دخول بيدرو المفاجىء وهو يجر طاولة صغيرة قد افقد من عزيمتها عن مغادرة الغرفة. فقال دون البيرتو بلهجة ملاطفة:

«من فضلك، ابقي هنا وقدمي لي الشاي».

كان من الصعب مقاومة سحره، ولم تلبث سيرينا الا ان استسلمت قائلة بعد لحظات مترددة:

«حسنا. اقبل اعتذارك. وسأحتسي الشاي معك».

في صوت رنان دعاها الى الجلوس. وبينما كانت تسكب الشاي العنبري في فناجين صينية شفافة، راح يراقب بعينيه حركاتها الدقيقة. وفي الحال اضاء بريق صغير عينيه السوداوين.

خلال الحديث بينهما، استجوبها في لباقة ذكية، وارغمها على البوح بكل تفاصيل حياتها الماضية من دون ان تشعر اطلاقا انها تخضع لتحقيق. بل بالعكس كانت تشعر تجاهه بنوع من عرفان

الجميل للأهتمام الذي يحمله اليها. كان يستعمل سحره بسعادة اشعرتها بالاسترخاء الممتع، كأنها تشاطر رفقة عمها المهتم بمشاكلها والذي يدير لها اذاناً صاغية. شعرت بثقة تامة وراحت تقص عليه كل عذاباتها الماضية وآمالها المستقبلية.

دقت الساعة الرابعة، قاطعة هذا الحوار الحميم وقالت سيرينا المندهشة باستغراب:

«كيف مر الوقت بهذه السرعة؟ لم اكن افكر اني سأتغيب اكثر من ساعة. يجب ان اعود الآن.»

نظر اليها دون البيرتو بدهشة وقال:

«لا يمكننا ان نختصر هذا الحديث الآن، ونحن مازلنا في خضمه، يا ابنتي. مازلت في حاجة لأن احدثك بالتفصيل عن العرض الذي كنت بصدد تقديمه اليك».

«اذن ، هل في نيتك ان توظفني عندك؟»

«اخترتك ولن يقع اختياري على غيرك».

ابتسم واقترب منها وقال:

«غير ان القرار النهائي عائد اليك، بكل تأكيد».

استرخت سيرينا في مقعدها متأثرة بلهجة دون البيرتو الوقورة. فقد كانت على انتظار وترقب.

سألها فجأة:

«ماذا تعرفين عن شيلي؟»

قالت مندهشة مستغربة.

«الشيء القليل. تقع في اميركا الجنوبية. اليس كذلك؟»

هز رأسه ايجابا وابتسم قائلا:

«تماما، انها بلاد بشكل الفاصوليا الخضراء، تقع بين الانديس والمحيط الهادي. من جهة، هناك الجبال وثلوجها المستمرة، ومن جهة اخرى، البحر ورغوته العالية. انها وطني وارض بلادي. وهي المكان المفضل لتربية شقيقتك. هذا البلد متنوع المناخ بسبب طوله، وكذلك مناظره المختلفة. ففي الشمال، نرى فسحات شاسعة صحراوية حارة حيث الامطار نادرة. بينما في الجنوب، فالغابات رطبة جدا ولذلك ابناء شيلي يقولون في مزاح انها تمطر على الاقل ٣٦٥ يوما كل سنة. وقمم الثلج المجلد العالية تطلق السيول والانهار والبحيرات. وبين الاراضي الصحراوية في الشمال، والاراضي الواسعة والباردة في اقصى الجنوب، يقع السهل الاوسط الكبير. وهنا، اقطن، في اسفل الوادي الخصب. الطقس رائع، الصيف حار وناشف والشتاء ممطر وناعم».

توقف دون البيرتو لحظة ثم اعاد يقول:

«اتت عائلتي الى هذه البلاد منذ القرن السادس عشر. اسلافي كانوا ينتمون الى المغامرين الذين غزوا اميركا، والذين جاءوا من اسبانيا، متعطشين الى خوض مغامرة البحث عن الذهب. لم يجدوا ما كانوا يبغونه، انما استقروا في هذه البلاد. وبعد مدة غير قصيرة ارسلوا وراء عائلاتهم. في البداية، كان ذلك صعبا لأنهم كانوا يعيشون محاطين بالهنود العدائيين. والخسائر البشرية كانت عديدة، لكن رويدا رويدا توصلوا الى التغلب على جيرانهم وقهرهم. واليوم يعتبرون انفسهم من ابناء تشيلي اكثر من كونهم اسبانيين. اننا معجبون كثيرا بشجاعة الهنود وحبهم للحرية، كما اننا نعي تماما، كوننا متعلقين بالتقاليد القديمة التي حملها الغزاة معهم. ان هذه

الفضائل التي يتمتع بها الهنود ساعدت على انشاء الامة التشيلية. الاستعمار الاسباني القديم اصبح جمهورية شابة. غير ان موقعها الجغرافي، وكونها مطوقة بالجبل والبحر والصحراء، يجعلها منعزلة تقريبا عن العالم. الحروب والثورات المستمرة مزقتها. الهزات الارضية والتيارات البحرية القوية والمتكررة، ساعدت على تدمير مدن بكاملها ومازال هذا يحدث الآن. البراكين استيقظت من جديد وتبرز احيانا بين ليلة وضحاها. ان الشباب الشيليين يشبهون تماما «الكاوبوي» رعاة البقر الاميركيين العاملين في مزرعتي والذين يهتمون بالماشية. انهم صاخبون، انفعاليون وتلقائيون. وهم يعكسون صورة بلادهم.»

توقف قليلا ثم اضاف:

«حفيدي يشبه هؤلاء العمال وهو الذي سيرأس المزرعة بعدي، في السنوات المقبلة. لكن، بانتظار ان يخلفني، سيعيش حياة رعاة البقر الى ان يحين اليوم الذي اقرر فيه ان اتقاعد».

ران صمت قصير ثم تابع يقول:

«ومن اجله، نشرت الاعلان في الصحف. . . واذا كنت ارغب في ان تأتي معي الى آخر العالم، ذلك من اجل ان تصبحي زوجته!»

حدقت سيرينا به مذعورة وقالت في تلعثم:

«م . . . ماذا؟»

اضاف دون البيرتو والحزن يملأ وجهه:

«نعم. هذا محتوى عرضي، حفيدي في حاجة الى زوجة، واعتقد اني الوحيد الذي يمكنه ان يختارها له».

اطلق زفرة وهمس بصوت يدل عن ارهاق وتعب:

«الآن، اصبحت رجلا عجوزا، يا سينيوريتا. وارغب - وهذه امنيتي الغالية - ان اغادر مزرعتي تاركا اياها في ايد صالحة. عندما يتزوج، يصبح حفيدي قادرا ان يفرض سلطته على رجال الاعمال الناضجين الذين يتعامل معهم ويفرض الطاعة على العمال الذين في سنه والذين مازالوا يعتبرونه واحدا منهم».

راح قلب سيرينا يخفق بسرعة وهي تهز رأسها. كلمات دون البيرتو احدثت عندها نوعا من الدوار. كتلة الصور تتداخل في مخيلتها. وتتصادم فوق بعضها البعض. قمم الجبال المثلجة، والبحار الهائجة والصحاري الحارة، حتى طيب الشمس والغابات الغارقة تحت المطر، كل هذه الصور بدأت تتمايل امام عينيها. وفي هذه الاماكن قام الغزاة الوقحون، الباحثون عن كنوز الذهب، بشن معارك لا ترحم ضد الهنود؟

الهزات الارضية المرعبة التي وردت في حديث دون البيرتو لم تحدث فيها رعبا مثلما احدث فيها عرضه غير المنتظر، الزواج من حفيده! كانت مضطربة ومشوشة وكانت تجد صعوبة كبيرة في السيطرة على تناغم افكارها. العمال الذين يشبههم برعاة البقر الاميركيين، هؤلاء المندفعون الصاخبون، يعيشون نمط حياة مختلفة تماما عن الحياة التي تعيشها. صحيح انه تسنى لها ان ترى في السينما المواشي المنتشرة على مدّ النظر في السهول، وان تعجب بالفرسان والرعاة الذين لا يغادرون احصنتهم ليلا ونهارا. لكن هذه المساحات الشاسعة التي كانت تشاهدها على شاشات الصالات المظلمة، كانت تبدو من صنع الخيال، اكثر من كونها واقعية. اضافة الى ذلك، تلك الموائد التي يشترك فيها العمال في الهواء الطلق تحت ضوء القمر

والنجوم، حيث تشوى اللحوم بكمية ضخمة، تزيد هذا الشعور خبالا وبعدا عن الواقعية. فالبيض المقلي واللوبياء المسلوقة، أليس هذا ما كان يتألف منه طعامها؟ وها هي الآن في وضع يقترح عليها عجوز شيلي ان تتزوج من رجل ينتمي الى عالم آخر تجهل كل شيء عنه.

فتحت عينيها بقوة، فاحدثتا عند الرجل العجوز دهشة قوية، كأنها حالة صدمة ما. فتمكنت من القول:

«هل انت تتكلم بجدية؟»

اجاب بلهجة قاطعة:

«نعم. انا اتكلم بجدية تامة يا سينيوريتا».

اطلقت زفرة مؤلمة وقالت:

«لكن حفيدك هذا. . . ماذا يفكر بمثل هذا التدبير؟! اي نوع من الرجال هو كي يقبل ان يختار له جده زوجة؟»

همس العجوز، حالما:

«اي نوع من الرجال هو؟ انه نسخة طبق الاصل عن والده. . . تألمنا لخسارته منذ سنوات عديدة. كان ابني الوحيد وقتل على اثر هزة ارضية. احب زوجته حبا كبيرا. وهي كانت رائعة الجمال. اراد يوما ان يقدم لها الملابس الجديدة ومساحيق الزينة، فاصطحبها معه الى المدينة. وهناك وقعت المأساة. كانا في الفندق عندما حدثت الهزة، وسقطت الجدران عليهما. كانا زوجين مثاليين، متحدين بشكل لا يوصف. . .»

ران صمت قصير ثم تابع قوله:

«لا يتذكر حفيدي شيئا عن والديه. ومع مرور الزمن، اصبح

يذكرني كثيرا بوالده. في السنوات الاخيرة قبل وفاته، منحني ابني الوحيد ارتياحا وتعويضات جمة. وقبل وفاته ببضعة اسابيع، شكرني على طريقة تربيتي له وعلى نصائحي. سيشكرني حفيدي يوما ما، لأني سأدله على الطريق الصحيح ـ الطريق الوحيد لتحقيق الذات كليا. لكن، لا اعرف ماذا ستكون ردة فعله امام هذه المبادرة...»

فجأة اصبح نظره باردا وغير واضح التعابير وقال:

«لكنه في الاخير سيفعل ما سأقوله له».

شعرت سيرينا بالشفقة تجاه ذلك الشاب الذي يعيش منذ سنوات عديدة تحت ظل هذا العجوز السلطوي المستبد. لا شك ان الثقة تنقصه وهذا ما تفهمه تماما، اذ انه يثق بحكم الغير اكثر من حكمه هو. لا شك ان الخجل قد شلّه. لا بد ان يكون انسانا معقدا وحساسا للانتقادات ومكبوتا على ذاته.

غير انها، بالرغم من الشفقة التي تشعرها تجاهه، فليس واردا ان تقترن به!

اعلنت في هدوء تام:

«انا آسفة عليك ان تبحث عن زوجة لحفيدك في مكان آخر»

سألها بصوت قاطع:

«لماذا؟ هل انت مغرمة برجل آخر؟»

«لا ليس هذا هو السبب اطلاقا»

«اذن لماذا تكذبين؟ الم تؤكدي لي، منذ قليل، انك ستفعلين اي شيء من اجل ايواء اختك؟ وما اقدمه لك ليس «اي شيء». يبدو انك لا تفهمين ان حظا يفلق الصخر قد قدم اليك. فكري قليلا بالحياة التي تعيشينها في الوقت الحالي وبالحياة التي اقدمها اليك...»

احتجت قائلة:

«لكنك لا تفهم شيئا؟ لن اتزوج ابدا برجل اجهل عنه كل شيء ولم يسبق ان التقيت به حتى ولو مرة واحدة!»

«غير انك ترغبين في الزواج يوما».

احمّر وجه سيرينا وقالت:

«يعني ان... يوما ما، اود ان... نعم».

قاطعها وقال بصوت ناعم:

«انت كثيرة التفاؤل اليس كذلك يا سينيوريتا؟ آمال كثيرة من دون شك. لكن هل تعتقدين حقا ان رجلا سيقبل ان يربي طفلة ليست منه؟ الرجال انانيون، ويرفضون التضحيات... هل تريدينني ان ارسم لك وضعك، الذي ستواجهينه بعد بضعة سنوات؟ سترهقين باعباء تربية طفلة لوحدك، وستصبحين عجوزا قبل الاوان. ستجدين نفسك وحيدة عندما تصبح اختك في سن الدراسة، ثم وحيدة من جديد، عندما تبدأ في الخروج. وسترين سن الشيخوخة يمتد امامك. وستجدين نفسك غير محبوبة أو مرغوبة. ولا تعودين في حاجة للانتظار كي تشكرك اختك على اهتمامك بها، هذا اذا كانت مختلفة وغير اعتيادية».

غمرتها قشعريرة باردة فقالت:

«انت رجل قاس، يا سينيور!»

«واقعي، يا سينيوريتا. من الافضل لك ان تتبعي نصيحتي».

ادار ظهره وخرج من الغرفة. وبالرغم من الحرارة داخل الغرفة شعرت سيرينا بالبرد يحتلها. اجتاحها خوف فوق الوصف. راحت ترى نفسها وحيدة وقد فقدت اغراءها وجاذبيتها، واصبحت هرمة

اليس هذا ما يخيف؟

نظرت حولها وراحت تقارن محتوى هذه الغرفة الانيقة والفاخرة بغرفتها الحقيرة شبه العارية، غرفة عليها مغادرتها بعد اسبوع. الى اين تذهب؟ والى متى سيدوم هذا الواقع المؤلم؟ ربما ستشعر ويندي بعدم الاستقرار الذي سيترك فيها اثرا ابدياً.

عندما عاد دون البيرتو الى الغرفة كانت عينا سيرينا تحدقان بنار المدفأة التي يترنح لهبها باستمرار. كانت تبدو هادئة جدا. اقترب منها فادارت وجهها نحوه. ورأت في عينيه بريق امل، فابتسمت له فقال:

«هل قررت، يا سينيوريتا؟»

«نعم، سينيور. قررت ان اقبل العرض. آمل ان يجدني حفيدك زوجة تناسبه».

٣ - بعض من هداياه

بعد ثلاثة ايام كانت سيرينا جالسة امام نافذة الفندق الذي يطل على الساحة العامة، تراقب فصيلة من الجنود تقوم بمناورات حربية على صوت الابواق. انه تبديل الحرس امام قصر مونيدا، قصر الضيافة التابع لرئيس الدولة. ويعتمر الجنود قبعات ويرتدون الدروع والسراويل الكاكية وينتعلون جزمات من الجلد الاسود تصل الى ركبهم. كانوا مصطفين امام من سيحلون مكانهم، وينتظرون الاوامر. الضباط التابعون للفريقين يسحبون سيوفهم ويحيّون بعضهم، بحركات انيقة ودقيقة. ويحصل التغيير، اثنين اثنين، الى ان تتغير الفصيلة كلها. ثم تعزف الابواق موسيقى عسكرية ويمشي الجنود بعد نهاية مهمتهم في شوارع سانتياغو متجهين الى ثكنتهم.

بدت العاصمة ممتدة كليا امام انظار سيرينا. انها تقع وسط سهل واسع ويعبرها نهر في جهتها الشمالية. وتحدها شرقا الجبال الشاهقة التي تسدّ الافق، وهي جبال الانديس.

كان الانطلاق من لندن منذ ٢٤ ساعة وكانت الرحلة مريحة وموفقة. واهتم دون البيرتو بالطفلة ويندي تماما كما يجب. وبينما كانت في احضان سيرينا لم تكف عن النظر اليه والابتسام له.

سحرته الطفلة فاصّر على حملها وتدليلها تاركاً سيرينا في افكارها وهي تتساءل عن الحوافز العميقة وعن الشائعات التي ستروجها زميلاتها في المكتب.

خادم دون البيرتو اهتم بكل شيء، حتى آخر التفاصيل. لكن الوقت كان قصيرا وشعرت سيرينا بانها لاهثة ومبهورة. كانت تعي انها ترتكب جنونا حقيقيا... ففي انزعاج كبير، كانت قد اتصلت بمديرها وشرحت له انها ستقدم استقالتها من العمل.

«بسبب الظروف العائلية، اضطررت للبحث عن مسكن جديد... كما اني وجدت عملا آخر لا يبعد عن المكان الذي اسكنه من الآن فصاعدا...»

اجابها بلهجة لطيفة:

«انا آسفون ان تغادرينا لكن، بما اننا ندخل فترة عصيبة، فغيابك لن يؤذينا. بامكانك ان تتصلي بي في الوقت الذي يناسبك حتى ارسل اليك راتبك وشهادة العمل».

اتصلت سيرينا بمديرها هاتفيا في فترة الغداء، حتى تتحاشى اسئلة زميلاتها المحرجة. فهي لا تتمتع بالشجاعة الكافية لترد على اسئلتهن. كانت علاقاتها مع زميلاتها في المكتب علاقات عمل

وحسب. وكانت تضطر الى رفض جميع الدعوات، لأنها كرست كل وقتها الفارغ للاهتمام بويندي. ولذلك لم تكن على صداقة حميمة مع اي من الزميلات. وفكرت سيرينا في مرارة انهن سيتكلمن عنها يوما أو يومين، ثم سينسينها تماما كباخرة في عرض البحر تختفي في الليل ولا تترك سوى صورة هاربة.

تنفست الصعداء وابتعدت عن النافذة متوجهة نحو سريرها. منذ وصولهم الى هذا الفندق، تدبّر لها المدير مربية ستهتم بويندي خلال مدة اقامتها القصيرة في العاصمة الشيلية.

نصحها دون البيرتو قائلا:

«حاولي ان تنامي قليلا، اذا تمكنت من ذلك، يا عزيزتي. سنلتقي وقت الغداء في غرفة الطعام. هناك اشياء كثيرة اريد ان احدثك بها قبل الذهاب الى المزرعة».

قبلت هذا الاقتراح بفرح كبير. فقد تمّت الاحداث بسرعة غريبة في الايام الاخيرة... وهذه البلاد تبلبلها. الضجيج، والمناظر الجديدة، والوجوه، كل شيء يبدو غريبا عليها، بل محيّرا وكئيبا.

منهكة، تمددت سيرينا على السرير. تعبها ليس جسديا بل سببه التوتر النفسي. السرير مريح والاغطية ناعمة، ومع ذلك فلا شيء باستطاعته تهدئة اضطراب اعصابها. كانت متقلصة الوجه ومشوّشة الافكار.

ألم تقبل بالزواج من رجل لم تره في حياتها من قبل؟ وهل هي قادرة ان تكون سندا فعالا لهذا الرجل الخجول ذي الطبع اللين؟ وهل ستحل الخدمات التي ستقدمها له مكان الحب؟

لم تتوصل الى الشعور بالراحة المنشودة وظلّت تتقلب في فراشها،

يمنة ويسرة من دون جدوى. احتلها ارتخاء متعب وتدريجيا شعرت بثقل في جفنيها وسرعان ما غطت في نوم عميق. حلمت ان رجلا ظهر في حياتها ليريحها من كل اعباء الحياة كانت ارادته لا تقهر وحماسه لا يضاهي. جاء ليعزيها ويواسي همومها. شفى جروحها العميقة واعاد اليها الحماس وحب الحياة. واخيرا، اشعل في صميم قلبها الحب... منذ سنة تقريبا وهذا الحلم يراود لياليها.

وعندما استيقظت من نومها، بعد مرور ساعة تقريبا، كانت الدموع تلألأ في عينيها. نظرت الى ساعة يدها. مازال امامها الوقت الكافي قبل ان تهيء نفسها لموعد الغداء. الشمس سربت اشعتها من وراء النوافذ الخشبية المغلقة. والقت نظرة حولها باستغراب. انها تذكر كليا انها تركت النوافذ مفتوحة قبل ان تتمدد في سريرها. لا احد غيرها موجود في الغرفة. غير ان شخصا، قد دخل الى غرفتها في صمت وهدوء بينما كانت نائمة واغلق النوافذ. وفي سرعة، توجهت الى الباب واقفلته بالمفتاح. الشعور بالتجسس عليها وضعها في حالة انزعاج. لكن تصرفها هذا لا يجدي حتى انها اعتبرته تافها. غير انها شعرت في الوقت الحاضر انها سريعة العطب وان اقفالها الباب سيجعلها اكثر اطمئنانا.

شعرت برغبة في الاستحمام فتوجهت نحو الحمّام، وتوقفت فجأة حين رأت تلة من الصناديق الرمادية موضوعة في ارض الغرفة. انها من مختلف الاحجام وكلها تحمل اسم «ميرابيل» محفورة احرفها بالذهب. تناولت الصندوق الاول وهزته بحذر فصدر عنه حفيف بالكاد سمعته فأثار اهتمامها. فتحته وبيدين مرتجفتين ابعدت الورقة الحريرية البنفسجية وشاهدت قميص نوم من الدانتال الناعم. لم

تتمكن من الامتناع عن اطلاق زفرة استغراب فرحة قبل ان تسحبه من العلبة وتتأمله مليا.

وواحدة بعد الاخرى فتحت جميع العلب بنوع من الاثارة جعل انفاسها تتقطع: كل صنف من الالبسة يسحر الالباب وامام عينيها غير المصدقتين، انتشرت اخيرا مجموعة من الفساتين وقمصان النوم والبزات والبنطلونات والحقائب اليدوية والاحذية... لا شك ان كل هذا كلّف اموالا طائلة. كانت الغرفة قد امتلأت بالاوراق واغطية العلب. عندما فتحت الصندوق الاخير، الذي يفوق حجما بقية الصناديق الاخرى، وجدت صعوبة لتمزق الورق الملفوف حول العلبة قبل فتحها. لكنها سرعان ما اطلقت صرخة اندهاش وهي تنظر الى معطف من الفرو الغامق اللون. وبعد تردد بسيط راحت تلامسه في نشوة وامتنان.

وظّلت برهة طويلة مفتونة امام هذه الثروات الممتدة امامها، حتى نجمات السينما لا تملكن مثل هذه الملابس الفاخرة... والبلهفة! وبما انها متعودة ان تكون فتاة اقتصادية، وجدت مثل هذا الاسراف غريبا وشاذا، ولا تجرؤ ان تقدّر قيمته.

وبعد تفكير طويل، اختارت ثوبا ابيض اللون، بسيطا، يدخله التطريز الانكليزي. ارتدته ووقفت امام المرآة تتأمل نفسها داخل هذا الثوب فوجدت انه يليق بها اذ ان قصته ذات فن رفيع... ان هذا الفستان يظهر شكل جسمها النحيف والمشوق. ويلفت الانتباه.

مساحيق الزينة والعطورات كانت موجودة ايضا. فوضعت على شفتيها قليلا من احمر الشفاه، بلون المرجان، وكحّلت عينيها

وجفنيها، وكانت في الوقت نفسه تفكّر بالرجل الذي حلمت به يرافقها. تذكرت دون البيرتو، هذا العجوز الفريد من نوعه الذي لا شك ان لديه معرفة واسعة بالنساء ويعرف كيفية ارضائهن واثارة اهتمامهن وبث الحماس فيهن. في حدس ذكي، عرف ذوقها تماما، بالرغم من لا مبالاتها بالزينة والملابس المترفة. حتى انه اكتشف قياسات جسمها وقدميها. . .

وبعدما تأكدت ان ويندي تنام بهدوء، خبطت سيرينا الادراج متوجهة الى مطعم الفندق حيث كان دون البيرتو في انتظارها. كان يحتسي شرابا خفيفا وهو جالس قرب النافذة. نهض واقفا عندما رآها تقترب منه. فشعرت سيرينا في الحال برغبة التعبير عن امتنانها، فمدّت له يدها، لكنها اندهشت عندما رفعها الى فمه. وقال في اعجاب:

«الشعلة. الجميلة. . .»

قالت وهي تهز رأسها:

«شكرا جزيلا، يا سينيور».

كان الوقت ظهرا والشمس التي كانت تملأ الغرفة تعكس اشعتها على جدائل شعر سيرينا الملفوفة حول رأسها.

بعد وقت قصير، جلسا امام مائدة الطعام وقدم لها الخادم سلطة «بالتا» المؤلفة من القريدس والأفوكادو المتبلة بعصير الحامض. والوجبة الاساسية كانت مؤلفة من عجينة تحتوي على مجموعة من اللحوم، والزيتون والبصل والفلفل الاخضر والزبيب. وبينما كانا يأكلان كان الحديث يدور حول امور عادية، لكنهما كانا يعرفان جيدا، انهما سيشرعان بعد قليل البحث في الامور الاساسية. . .

بابتسامة متسامحة، انتظر دون البيرتو ان تنتهي سيرينا من تناول الوجبة الاخيرة المؤلفة من بوظة الفراولة، وان تحتسي القهوة. ثم اعلن بغتة:

«صباح اليوم اتصلت لاسلكيا بحفيدي. سيأتي في طائرته لملاقاتنا في مطار سانتياغو».

ثم القى نظرة الى ساعة واضاف:

«سيصل بعد ساعة بالضبط».

قالت سيرينا بصوت مخنوق:

«هكذا باكرا؟»

باشارة من رأسه وافق دون البيرتو ثم قال:

«اريد ان اطلب منك شيئا يا سينيوريتا. قبل وصول حفيدي بعد تفكير طويل، توصلت الى النتيجة التالية: ارى انه من الافضل ان تدعيه يعتقد ان ويندي ابنتك. . .»

ارتسم الاندهاش على وجه الفتاة، فاسرع يقول بالتحديد:

«وفي الوقت المناسب، سأفصح له بالحقيقة كلها».

«لكن لماذا تريد ان تكبده خيبة الامل هذه، يا سينيور؟»

ظلّ ساكتاً يحدق فيها بامعان. كان وجهها مليئا بالبراءة والنضارة، مما جعل الابتسام يرتسم على وجه دون البيرتو الذي قال:

«بما اني اعرف ذوق حفيدي لما يسمّى بالالغاز، فقد قررت ان اطرح عليه لغزا. لا شيء يوقظ التحدي مثل سر يبقى كاملا. وكيف عندما يرى فتاة متحفظة وبشوشة لا يمكن لأحد ان يشك انها ام لطفلة صغيرة؟ الطفلة تشبهك كثيرا وسيعتقد، كما سبق واعتقدت انا، انها ابنتك. سيكون الامر طبيعيا. . .»

احمرّت وجنتا سيرينا وحاولت جهدها للحفاظ على هدوئها وقالت:

«اذن، يا سينيور، تريدني ان أدّعي بأني والدة وينبدي من اجل ان تشحذ فضول حفيدك، فقط لا غير. اعتقد ان ذلك ليس تصرفا لائقا من جانبك، ان بالنسبة اليّ أو بالنسبة اليه».

تجهّم وجه دون البيرتو وظهرت القساوة في نظرته وقال بلهجة لاذعة:

«لا دخل للعواطف بهذه الصفقة التي عقدناها وليس فيها سوى الفوائد المادية التي ستحصلين عليها!»

اكفهّر وجهها؛ ظاهريا يبدو هذا العجوز طيبا وساحرا ولكنه يخفي وراء ذلك قساوة حقيقية. غير انها توافق بأن له الحق في ان يذكرها بغاية هذا الاتفاق، الذي تجني منه فائدتها بسعادة ساذجة. غرفتها في فندق درجة اولى ملابسها الفاخرة، كلها تظهر كرمه الحاتمي. وفي الوقت الحاضر، لم يعد لها الحق بالتذمر، لأنها قامت باختيار سجنها الذهبي وعليها ان تسلّم به وتتحمل كل المسؤولية.

قالت خافضة الرأس:

«سأفعل ما تريده، يا سينيور. لكن، ماذا تريد مني ان اقول لحفيدك بالضبط؟ الموضوع شديد الدقة...»

«انك مسؤولة عن طفلة وعليك تحمّل اعباء ذلك، ببساطة».

«شيء في اعلانك اثار اهتمامي وهي الفقرة التي تتعلق بقبول طلبات اللواتي يتحمّلن اعباء الاسرة. نادرا ما يقبل اصحاب العمل ان يقيم الموظف لديهم في بيوتهم مع افراد العائلة... اذن، لماذا؟»

وبما ان سيرينا وعدت بلطف ان تفعل ما يريده العجوز منها، تغير

مزاجه وتناول سيكارا واجاب قائلا:

«كل كلمة وردت في الاعلان كانت مدروسة في اعتناء ودقة، وخاصة ما جاء في الفقرة التي تنوهين بها. الفتاة التي كنت ابحث عنها عليها ان تملك كل الصفات التي لا جدل فيها، وخاصة ان تتحلى بحسن الواجب، الذي هو اهمّ شيء في نظري. يجب الا افقد ثقتي بها في المستقبل... وعندما يكون المرء خاليا من هذه الصفات لا يمكنه ان يتحمل اعباء الاسرة وخاصة لفترة طويلة. وهذه الطفلة تخدم خطتي تماما. لا يحب المرء اهله فعلا الا بعدما يصبح هو ابا أم اما ايضا. لذلك، ان تعيشي قرب هذه الطفلة، وتهتمي بها، سيعود ذلك اليها بفائدة جمة. فاذا امضى حفيدي ليلة قرب سرير طفلة مريضة سيتعلم الكثير وسيجني ثمارا لا يمكن لأي فلسفة نظرية ان تمنحها له...»

«قلت ان حفيدك لا يتذكر والديه اطلاقا. وبنظرة، انت الذي لعبت دور اهله. هل هذا يعني انه تصرف نحوك بجحود؟»

«ليس تماما. لكنه يشك بصحة طريقتي وليس قادرا ان يفهم بوضوح دوافعي. وربما اذا جابه بنفسه المشاكل التي تطرأ على تربية الاطفال، سيعي الصعوبات التي واجهتها عندما كنت اربيه. سيفهم اخيرا أن ما افعله يخدم مصالحه».

«وبقدر ما هذه المصالح توافق مصالحك» هذا ما فكرت به سيرينا في نفسها وهي ترتعش.

منذ لقائهما الاول، تنبأت سيرينا ان هذه اللباقة الخارجية التي يظهر بها دون البيرتو تخفي وراءها رجلا قاسيا وحاسما، يسخر بآراء غيره، ويفرض ارادته على الضعفاء، وذلك في عجرفة وتعاظم ودون

مراعاة. وبالنتيجة، ايقظ في نفس حفيده الخجول والمطيع العداء والضغينة!

انقبض قلبها. حفيده انسان ضعيف وواهن مثلها... ماذا بامكان هذان المهرّجان ان يفعلاه، اذا كانت هناك يد حديدية تعاملهما كما تشاء؟

٤ - مهماز الغضب

في سيارة التاكسي التي تقلهم الى مطار سانتياغو، لم يتكلم دون البيرتو الاّ قليلا. كان يبدو متوترا وعصبيا. ولما دخلوا الى المدرج، شعرت سيرينا بانقباض وتوتر ايضا.

بعد دقائق قليلة، ستتعرف الى الرجل الذي وعدت بالزواج منه!

كانت ويندي متكورة على صدر اختها بقوة، مما جعل سيرينا تسرع لتقف قرب دون البيرتو الذي كان مسمر العينين في الطائرة الانيقة الجاثمة على المدرج. همس يقول:

«عظيم. لم يتأخر في الوصول».

ارتخت تقلّصات شفتيه وابتسم. وانتشرت حولهم حركة نشطة. اندفع سيل من المسافرين الى الطائرات التابعة لمختلف شركات

الطيران. الاقلاع والهبوط يتعاقبان في تناغم ثابت. لكن سيرينا لم تكن تنظر الا الى الرجل الذي خرج من الطائرة الفاخرة وراح يتقدم نحوهم في خطى واسعة. فأشار اليه دون البيرتو بيده، ثم قال باستغراب وخيبة امل:

«يا الهي ! لماذا جئت انت يا كوستا؟ اين حفيدي؟»

ارخت سيرينا ضغطها على ويندي وشعرت بارتياح لأن الشاب الواقف امامها ليس حفيد دون البيرتو. كان الطيار يرمقهم بنظرات استغراب وبدا منزعجا في شكل واضح، ثم قال:

«طلب مني ان اعبر لكم عن أسفه لعدم قدرته المجيء يا سينيور. من كثرة انشغاله، لم يتمكن ان يحرر نفسه كي يأتي ويرافقكم».

انطلق دون البيرتو غاضبا:

«تبا له! ماذا الذي منعه من المجيء؟ لم تحدث هزة ارضية على ما اظن!»

اخذ كل واحد مكانه داخل الطائرة. فجلست سيرينا قرب العجوز المتوتر الاعصاب. وخلال مدة نصف ساعة، ظل صامتا وعابسا بينما كانت الطائرة تتجه نحو الجنوب. وغابت العاصمة وناطحات السحاب بعيدا وراءهم. كانت الطائرة تحلق على ارتفاع منخفض فوق حقول مزروعة باشجار السرو والاوكاليبتوس والحور. وقنوات مائية تصل الحقول ببعضها البعض.

قال دون البيرتو بعد ان انفرجت اسارير وجهه:

«هذه الاراضي هي افضل اراضي شيلي. وبـ. ب الجبل، الري يتم بصورة جيدة. جبال الانديس والتلال المكسوة بالثلج تشكل خزانا حقيقيا. لذلك فلا تنقصنا المياه حتى في الصيف الجاف».

سألت سيرينا وهي متقلصة اليدين:

«هل لديك مزروعات ، يا سينيور؟»

«اننا نرعى الماشية. لكن لدينا بالطبع حقول مزروعة تكفي حاجتنا فقط».

ومرة اخرى غاص صمت عميق. وازداد توتر سيرينا التي كانت تحدق من خلال نافذة الطيار وترى حقول القمح والذرة والشعير والخضار، ثم قطعان الماشية. وبعد قليل لم تعد ترى سوى مساحات واسعة من العشب الممتد الى ما لا نهاية وحيث ألوف الابقار والاغنام والماعز. لم يسبق ان رأت مثل هذا التجمع الضخم وهذه القطعان. ولما بدأت الطائرة بالهبوط باتجاه احد المنازل الذي كان بالكاد مرئيا على خط الافق، عرفت سيرينا انهم وصلوا الى المكان المقصود.

وخلال الهبوط خارت قدماها وشعرت بخفقان قلبها. على طرف المدرج كانت سيارة بانتظارهم. صعدت سيرينا في المقعد الخلفي واقلعت السيارة في الحال متجهة نحو مسكن كبير يقع وسط مجموعة من اشجار الاوكاليبتوس. والجدران مبنية من الحجارة الثقيلة، ومطلية بالكلس الابيض. اما السقف فمصنوع من صفوف القرميد الاخضر المدوّر. البلاط الاخضر يكسو ارض الشرفة وينتشر حول بركة السباحة.

عندما دخلوا المنزل، لاحظت سيرينا البلاط نفسه في الارض. دعاها دون البيرتو ان تعبر المدخل وتوجه بها نحو الصالون. بساط بني فاتح يفرش الارض، وحول الصالون مجموعة مقاعد مستندة الى الجدار، ملبسة بالقماش الهافاني. وعلى الجدار رفوف بيضاء مليئة بالكتب الضخمة والمجلدة. هنا وهناك لمبات رفيعة وانيقة تليق بهذا

الجو. مدفأة ضخمة تلفت النظر، من حجر الرخام تعلوها ظهرية نحاسية تعكس الوان النار الفاقعة والمتبدلة. ويمكن لعشرة اشخاص ان يتجمعوا حولها.

فتنها المنظر كليا. فسألها دون البيرتو الذي شعر بسعادة واطراء:

«هل اعجبك منزلي، يا سينيوريتا؟»

كانت نظراتها البراقة تفيض بجواب ايجابي. فقالت:

«انه رائع للغاية، يا سينيور، ويحتوي على ذوق رفيع. عرفت ان تدخل كل وسائل الراحة والحياة العصرية من دون ان تسيء الى الطابع الاصلي».

هزّ رأسه وكاد ان يشكرها لهذا الاطراء حين انفتح باب الصالون بعنف واطلت منه امرأة، قصيرة القامة، بدينة وراحت تهز ذراعيها مرحبة بهم في حرارة.

«المعذرة يا سيدي الكونت، لقد اعلمني الطيّار كوستا بوصولك لتوه. تأخذان بعض الشرابات المنعشة، انت والسيدة، أليس كذلك؟ هل اجلب حليبا للطفلة؟»

«شكرا يا كارمين. انا اكيد ان ضيوفي يشعرون بالعطش مثلي. لكن قبل ان تقدمي لنا الشراب، ربما من الافضل ان تدلي الآنسة بأين الى غرفتها. هل اتخذتم التدابير الضرورية بما يتعلق بالطفلة، حسب اوامري؟»

«نعم يا سينيور. كل شيء جاهز. لو تتفضل الآنسة وتتبعني؟»

وقبل مغادرة الصالة سأل دون البيرتو مستعلما:

«والمربية؟ هل وجدت الممرضة المناسبة؟»

«اهتميت بالامر كذلك يا سينيور. طلبت من شقيقة كوستا ان

تهتم بالامر. وهي تنتظر بفارغ الصبر ان تلتقي الصغيرة».

قال بامتنان ظاهري:

«رائع. كل شيء تمّ على احسن ما يرام».

ثم وجّه كلامه الى سيرينا بوجه بشوش وابتسامة على الشفتين:

«عليك ان تعذريني، يا سينيوريتا، ستحتسين الشراب وحدك. بسبب تغيبي عن المنزل، تكدست الاعمال عليّ... لكن في المساء سنتناول العشاء معا. وآمل حينذاك ان اعرفك الى حفيدي، الذي سيعتذر بحرارة لأنه لم يأت لاستقبالك في المطار».

«لا تقلق عليّ، يا سينيور. ولا تتردد في ممارسة اعمالك التي لا بد ان تكون كثيرة، على ما اظن. أما بالنسبة الى حفيدك فنعرف ان عذره معه. سنلتقي جميعا في المساء!»

كادت ان تفقد هدوءها لمجرد التفكير بهذا اللقاء. وحاولت ان تتمالك نفسها، فتبعت كارمين وهي تضم شقيقتها ويندي الى صدرها. لقد حققت ما كانت تتمناه، اذ وجدت المكان المناسب كي تترعرع فيه ويندي، من دون ان تشعر بحاجة لأي شيء. لكن عليها ان تدفع هذا الثمن، حتى ولو كان مرتفعا.

تبعت سيرينا كارمين التي قادتها الى اعلى البيت حيث تقع غرفتها وغرفة شقيقتها ويندي. كانت كارمين تتكلم بسرعة من دون توقف شارحة للضيفة كل ما بوسعها قوله. كانت الغرفتان تقعان تحت سند السقف مباشرة وقد طليت جدرانها بالابيض وبنيت الخزائن والرفوف في الزوايا العديدة، بذكاء واتقان. وتحت النافذة علقت صفحة خشبية طويلة يمكن استعمالها كطاولة عمل.

والغرفتان متصلتان ببعضهما البعض بباب داخلي. في غرفة

ويندي، كانت النوافذ مصونة بشباك حديدي من خلاله يتسرّب الهواء المليء بأريج الزهور المختلفة. وبعد وقت قصير تعرفت سيرينا الى بيللا المربية التي اختارتها كارمين للاهتمام بالطفلة. فناولتها شقيقتها النائمة بين ذراعيها والتي وضعت للحال في سريرها.

واحتلت سيرينا حالة هيام وعجب. لو انها جالت انحاء المعمورة كلها لما امكنها اكتشاف هذا المكان الذي يشبه الفردوس. وفي فرح وغبطة راحت تتصور شقيقتها وهي تلعب في هذه البساتين الخلابة. بين الحيوانات الاليفة. لا شيء في العالم يرغمها على الرحيل من هنا. . . هذا ما وعدت نفسها به!

امضت سيرينا بقية فترة بعد الظهر في التنزه حول المنزل. كانت تسرح في المكان من دون هدف معين. وبعد قليل وصلت امام مكان مسيّج، فاسندت ظهرها على الاسوار الخشبية. كان المكان خاليا. لا شك ان الرجال في مثل هذا الوقت يكونون في السهول المجاورة، يرعون القطعان التي شاهدتها وهي في الطائرة. فأكملت تجوالها، ذهابا وايابا، في خطى هادئة، ونظرت داخل مبنى واسع معدّ خصيصا للمنامة. لا حياة لمن تنادي. لكن بعد قليل سمعت اصوات طناجر وسكاكين فاقتربت لتكتشف مطبخا واسعا تنبعث منه رائحة اللحوم المشوية. هنا يحضر طعام رعاة البقر الذين لا بد ان يعودوا في اقل من ساعة.

بدأت الشمس بالهبوط فاسرعت سيرينا في العودة الى المزرعة. كانت مصرة على ان تبدو في افضل شكل امام الرجل، سبب سعادتها وحظها. كما هي على استعداد كي توقظ في هذا الرجل الخجول كل اهتمام وفضول. فارتدت فستانا مخمليا، ازرق ليليا، ذا اكمام

طويلة، يظهر نحافة جسمها وانتعلت حذاء رماديا فضيا. ثم سرحت شعرها الطويل حتى ينسدل امواجا شقراء على كتفيها. ونظرت مرة اخيرة في المرآة وشعرت بالامتنان من نفسها، في الحال خرجت من غرفتها.

وفي اعلى السلالم استجمعت كل ما لديها من شجاعة، كادت تقوم بالخطوة الاولى، حين سمعت رعدا من الاصوات المبتهجة تنقض على المنزل، وتعكر صفو هذا الهدوء الذي كان مستتبا طوال فترة النهار. كان عشرات الفرسان يقفزون عن احصنتهم ويتوجهون في صخب الى المطبخ.

تسمرت سيرينا في مكانها مترددة. ثم سمعت خطوات ثقيلة في الشرفة مباشرة تحت النافذة. احد الرعاة ولج في المدخل وسمعت بوضوح صوت المهاميز تسقط على الارض. وبعد بضعة ثوان، ارتفعت اصوات في الصالون. في البداية كانت عادية لكنها سرعان ما ارتفعت عاليا، وبدأ الضجيج والصراخ والصياح والصخب. بالكاد تعرّفت الى صوت دون البيرتو لأن من كان يتكلم معه كان يقاطعه باستمرار وبحقد وبلهجة انتقامية.

في حيرة واضطراب انحنت سيرينا الى الامام محاولة ان ترى الرجل الذي يجاوب بحدة وعنف على كلمات دون البيرتو. من يكون هذا الرجل ليجرؤ ان يتطاول على العجوز الذي يدير المزرعة بيد من حديد؟ لا يمكنه ان يكون موظفا أو عاملا، لأن مثل هؤلاء لا يستطيعون ان يتكلموا بهذه الوقاحة وهذا الجفاء. . .

اصطفق باب في عنف محدثا ارتجاجا في جدران المنزل. وعاد الصمت الثقيل المقلق. وعبق الجو بتوتر يشبه الكهرباء.

حاولت سيرينا السيطرة على خوفها، فتنفست الصعداء واطلقت زفرة طويلة. فجأة، انفتح باب غرفتها بقوة ودخل الغرفة رجل، ممشوق القامة، يرتدي بزة سوداء. هذا الاقتحام الفظ أرعب الفتاة، فتسمرت مكانها من دون ان تحدث صوتا. كانت تحدق بالرجل في عينين متسائلتين.

كان الرجل يقيسها بامعان ووقاحة. كان يتأرجح من كل جانب ويطقطق بمهمازه الفضي. يرتدي سروالا من الجلد الاسود ضيقا ويظهر نحافة وركيه وطول ساقيه العضليتين. وكان قميصه المفتوح يظهر صدره الاسمر. وشعره المشعث من شدة الريح فشعره اسود كذلك عيناه اللتان تلمعان ببريق شيطاني. ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة وقاسية مظهرة اسنانه البيضاء الناصعة.

قال بلهجة مستخفة:

«اذن، انت آخر مقتنيات الكونت! كان يجب عليّ ان افطن الى انه سيختار فتاة شقراء باردة، كأنها مصنوعة من جص!»

«من انت؟ كيف تجرؤ على الدخول الى غرفتي من دون ان...»

قاطعها بعنف قائلا:

«آه، ارجوك، لا تبدأي باعتباري انسانا احمق! لا يليق بك ان تلعبي دور النساء الخجولات حسب رأي جدي، انت مستعدة تمام الاستعداد لتقاسميني السرير!»

احمرت وجنتا سيرينا اشتعالاً وهمست تقول في تألم:

«اتريد ان تقول انك...»

«زوجك، لا اكثر ولا اقل. لكني زوج عاص ومتمرد...»

احنى رأسه ساخرا واضاف يقول:

«انا دون خوان دي فالديفيا، بيدق آخر في لعبة جدي.»

تلعثمت تقول:

«بيدق... لعبة...؟»

اقترب منها وقال:

«ربما لا تعرفين خطة جدي... لا شك انه خجل ان يكلمك عن خطته. اجلسي يا سينيوريتا، هناك شيء عليك ان تعرفيه بشكل ضروري».

جلست سيرينا في المقعد، وكتفت يديها وشدتهما الى صدرها في تشنج، كأنها تريد بذلك ان تبدد خوفها الكبير من هذا الرجل، الذي يشبه دون البيرتو بشراسته وهوله. كان عليها ان تتخلص من اوهامها وقناعاتها، فخوان دي فالديفيا ليس كما وصفه لها دون البيرتو، ذلك الرجل المنطوي على نفسه والورع. وبدأت تفضل ان تجابه النار والطاعون واي بلاء او مصيبة، ولا ان ترتبط حتى آخر حياتها بهذا الرجل السفاح، البربري ونظرته الباردة، وارث التوحش من اسلافه الغزاة.

قال بنظرة قاتمة:

«جدّي مربي ماشية معروف. قضى حياته يختار ويزاوج ويحسن مختلف الاجناس. واليوم، انه قادر ان ينتج - حسب الطلب - الحيوانات القوية او المؤذية او الوديعة. وهو يفتخر بذلك. واضافة الى هذا فهو على استعداد ان يرد للشاري كل ما دفعه اذا لم يكن هذا الاخير راضيا بما يشتريه. وفي الوقت الحاضر، ينوي جدي ان يطبق معلوماته وخبراته على الجنس البشري...»

فوجئت سيرينا بما يقوله واصابتها الغصة. لكن خوان دي

فالديفيا لم يترك لها مجال الاحتجاج اذ قال مؤكدا:

«نعم. ما اقوله صحيح. لقد سبق وفعل ذلك ونال نجاحا كبيرا. ولهذا السبب يريد ان يقوم بتجربة جديدة!»

صمت قليلا ثم تابع يقول:

«والدي كان مثلي، رجلا عنيدا. كان يفضل ان يفعل ما يروق له حتى ولو قام باغلاط كبيرة، بدلا من ان يسمع لنصائح جدي. وذات يوم، ومن دون سابق انذار دخلت المزرعة فتاة جميلة. كانت انكليزية شقراء، ذات عينين زرقاوين، وديعة وطيعة. اختيرت كي تعجب والدي. وقيل لي انه وقع في غرامها وكان ذلك الحب متبادلا بينهما. غير اني شككت في بادىء الامر، واعتقدت ان والدي وقع في حب هذه المزرعة الغنية اكثر من حبها. لكن للأسف، هذه الهزّة الارضية لم تسمح لجدي ان يكمل تجربته حتى النهاية، ولا شك انه متأسف على ذلك. وكذلك، ومن دون اي شك، يريد ان يقوم بتجربة جديدة يا سينيوريتا، ومعنا...»

رفع ذقنه وسألها في سخرية:

«ماذا لو قلت لك انه اختارك فقط من اجل ان يكون لك الاثر اللطيف عليّ مما يجعلني اتصرف نحو جدي بطاعة عمياء؟ لكني احذرك، يا سينيوريتا، ان هذه الخطة لن تنجح... ولا احد بامكانه ان يجعلني اركع له!»

بدأ قلب سيرينا ينبض بسرعة بالغة، فرجعت الى الوراء ويدها على صدرها وقالت وهي تهز رأسها:

«لست انوي ان اجعلك تركع لي، يا سينيور. كنت اعتقد انك كنت بحاجة اليَّ، ولهذا السبب جئت الى هنا. تصوّرت انك...»

اختنق صوتها لحظة ثم تابعت تقول:

«كنت اعتقد اني سأواجه رجلا خجولا ومعقدا غير قادر ان يجد بنفسه زوجة له. لكن، في الوقت الحاضر، بدأت ادرك ان جدك وصفك لي بطريقة خيالية ولا شيء مما قاله يوازي الحقيقة. وحتى لا يصار الى سوء تفاهم، لن اتزوجك، يا سينيور... حتى ولو اضطررت ان اموت جوعا!»

اصابته في غطرسته وتفاخره، فراح يرمقها بنظرات احتقار وغضب. وباحتراز ابتعدت عنه وتوجهت نحو النافذة وقالت:

«والآن، يا سينيور، اخرج من الغرفة من فضلك»

حيّرة تصرف الفتاة المتعالي فاقترب منها بارتباك وامسكها بذراعها في عنف. فتمالكت لئلا تصرخ فارغمها على الالتفات اليه وقال:

«اتساءل ما الذي جعلك تقررين المجيء الى هنا. انت فتاة جميلة ويمكنك ان تثيري اعجاب الرجال بك، لذلك فانا اكيد انك لم تأتي الى هنا لأنك لم تجدي رجلا يحبك ويريدك زوجة له. هل قدّم لك الكونت مبلغا كبيرا من المال؟ آه، اذن هذا هو السبب!»

افلت يده بسرعة وغضب توجه نحو باب الغرفة. توقف هناك واعلن بصوت قاطع مليء باحتقار مر قائلا:

«بما ان جدي هو الذي اشتراك فسيفعل بك كما يريد. لم يعد لي دخل بذلك. لكن يا سينيوريتا، اذا اردت نصيحتي، ارحلي في اسرع وقت ممكن. لم نعد بحاجة اليك هنا!»

اجتاز عتبة الباب عندما بدأ صراخ ويندي يعلو من الغرفة المجاورة، فأسرعت سيرينا اليها لأن الطفلة كانت وحدها ويللا المربية تتناول الطعام باتفاق مع سيرينا. ولما وصلت الى سرير

ويندي، توقف البكاء وبدأت الطفلة تزقزق بفرح.

فقالت لها سيرينا في حنان وقسوة:

«يا أيتها الفتاة الدلوعة! اذا بقيت اعاملك هكذا ستصبحين فتاة مدللة فوق اللزوم».

سمعت صوتا وراءها، داخل الغرفة غير المضاءة، فتذكرت للحال انها لم تكن وحدها.

«لمن هذه الطفلة».

كانت سيرينا تدور حول نفسها حاملة ويندي بين ذراعيها. وتشبه العذراء ببراءتها وطهارتها. اجابته بهدوء وافية بوعدها الذي قطعته امام دون البيرتو.

«هذه الطفلة لي».

قال غير مصدق:

«لك؟»

«نعم. لي.»

فرحت سيرينا لدى رؤيتها الدهشة العميقة التي ارتسمت على وجه خوان دي فالديفيا، الذي قال:

«ووالدها، اين هو؟»

من دون اضطراب، قالت بلهجة عادية لا يمكنه ان يشك بصدقها:

«والدها مات».

القى نظرة سريعة الى يد سيرينا اليسرى، فلم تكن ترتدي محبس الزواج ولم تكن تأبه بما سيفكره عنها. لم تكن تود سوى شيء واحد وهو ان تتخلص من هذا الرجل العدائي.

في فضول انحنى نحو ويندي ذات العينين الزرقاوين الصافيتين. فمدت له ذراعيها منتظرة ان يحملها. بدا مرتبكا الى درجة جعلت سيرينا تشهق ضاحكة. لكنها سرعان ما وضعت الطفلة في مهدها وقالت:

«عليك ان تنامي، يا صغيرتي. لا، لا تجلسي!»

قبلتها سيرينا وقالت:

«تصبحين على خير يا حبيبتي.»

اشارت لخوان دي فالديفيا ان يخرج وراءها من الغرفة قبل ان تغلق الباب الذي يصل الغرفتين. فقال الرجل بشراسة:

«هل جاء معك احد غير هذه الطفلة؟»

اجابت بصراحة بعد ان فوجئت قليلا:

«كلا. بالنسبة الى ويندي والي، حيثما نكون نحن معا، يكون منزلنا...»

ملأ وجه سيرينا استرخاء كبير. رمقها بنظرة غاضبة وعضلات فمه ترتجف بقوة كأنه يحاول ان يقاوم شرا مؤذيا. فقال:

«هذا العجوز محتال كالشيطان. لكن، بالرغم من هذه الظروف، لن اغير رأيي!»

لم يتسن لها الوقت لتسأله عن تفسير وايضاح. فقد اسرع نحو الباب وخرج الى الممر في خطوات واسعة تعبر عن غضبه. ولم تعد تسمع الا خشخشة المهماز.

٥ ـ خطة الجدّ

فجأة، دق الجرس معلنا موعد العشاء. تمالكت سيرينا نفسها لئلا تهرب. في الحقيقة، لم تعد تنوي البقاء هنا في المزرعة، غير ان مواجهة صريحة مع الكونت دون البيرتو اصبحت مهمة حتمية ولا مفر منها. عليه الآن ان يشرح لها الامور بوضوح، وان يتصرف بنبل ويقدم اليها اعتذاره، لأنه رسم لها صورة كاذبة عن حفيده، بعيدة كليا عن الحقيقة والواقع.

هبطت السلالم بسرعة وعصبية. ولما وصلت امام باب الصالون توقفت في تردد، ثم استجمعت قواها وكل ما تبقى لها من شجاعة وقررت ان تفتح الباب وتدخل قاعة الاستقبال.

فوجئت بوجود دون البيرتو وحده. كان مستغرقا في افكاره يحدق

بكأسه في كآبة. ولما دخلت القاعة، وقف يستقبلها. لم تلمح في وجهه اي اشارات للندم او تبكيت الضمير.

«انت رائعة حقا، يا سينيوريتا. لي الشرف ان ارحّب بك في بيتي واكرمك على مائدتي. من زمان بعيد لم تدخل منزلنا فتاة جميلة مثلك..»

تقلّصت سيرينا وخشيت ان تخور عزيمتها وتتخلى عن تصميمها الذي قطعته على نفسها برفض الزواج من حفيده، مهما كلف الامر.

«هذا لطف منك يا سينيور. غير انه عليك ان تسامحني اذا قلت لك ان هذه المجاملات وهذا الافراط في المديح الذي تنعم به عليّ، يبدو لي عديم الجدوى مثل بعض تصريحاتك الاخيرة...»

عدّل جلسته وتوارى التغضن المرير عن وجهه واعلن بصراحة:

«نعم عليّ الاعتذار منك يا سينيوريتا. ربما كان اخفاء الخطر اخطر من الكذب المتعمد... لكن بانتظار المناقشة بكل هذا، اسمحي لي ان اقدم لك شرابا منعشا. بامكاننا ان نتناول العشاء بعد قليل. لأنه اذا وجدت نفسك في ارتياح واسترخاء، ستتذوقينه افضل».

قبلت ان تتبعه الى المقعد حيث جلست ونظراتها المليئة بالخوف كانت منجذبة تلقائيا نحو الباب. عرف دون البيرتو ما يدور في خلدها فهمس يقول:

«استرخي يا سينيوريتا. حفيدي ليس في المزرعة مساء اليوم. ذهب الى المدينة برفقة بعض الرعاة. ولن يعودوا قبل الفجر وستسمعين ضجتهم الاعتيادية اذا لم يكن نومك عميقا».

شعرت سيرينا بارتياح واسترخت في مقعدها وبين الوسائد

المحيطة بها. فابتسم دون البيرتو لردة فعلها وقال:

«اذن، لقد اتيحت لك فرصة لقاء حفيدي. . .»

فاعترتها قشعريرة باردة وقالت:

«ما حدث بيننا لم يكن ما تسميه باللقاء. لقد احتجزني ووشمني للحال كما تفعلون بالماشية!»

كان دون البيرتو منهمكا في تحضير الشراب الذي رفضته، فقاطعها فجأة وردد وهو مقطب الحاجبين:

«وشمك؟»

«وشمني مثل اي امرأة سلعة، يا سينيور. . . وبرأي حفيدك، انا امرأة لا مكان لها هنا، ومصيرها متعلق بمن اشتراها، يعني انت، ايها الكونت!»

قال في غضب:

«يا الهي! لو كان مايزال صبيا، لقاصصته على هذا الكلام البذيء!»

«لكنه لم يعد صبيا. وفي كل حال، الظاهر انه على حق. . . ان تختار بنفسك امرأة لتزوجها من حفيدك الخجول والمرتاب، ليس هذا العمل بعيدا عن الخيال. لكن حفيدك يدعى خوان دي فالديفيا، وليس ذلك الرجل الخجول والمرتاب وما فعلته عديم الفائدة! لا يمكنك ان تجهل ان مبادرتك هذه ستجعله يغضب بعنف؟»

جلس قربها واكتفى باطلاق زفرة عميقة. لا شك انه نادم على ما فعله. لكن على ماذا هو نادم بالتحديد؟ على فشل مخططه، ام على الضرر الذي الحقه بحفيده وبها؟

قال بلهجة متوسلة:

«اذا قبلت سماع ما سأقوله، سترين ان تصرفي هو اقل انانية مما كنت تتصورين».

«وما الفائدة بعد الآن؟ بعدما باح به حفيدك، اصبح كل شيء واضحا. انت مربي ماشية معروف ولا احد ينكر نجاحك الباهر في هذا المجال. لكنك توصلت الى الاقتناع انه بامكانك تحقيق تجاربك على الكائن البشري. وشيئا فشيئا توصلت الى مشروعك وهو ان تحقق اتحادا كاملا لزوجين مثاليين. غير انك بذلك ارتكبت خطأ جسيما، فيما يتعلق بنا. دون خوان رجل . . . غليظ وفظ. واذا كان هذا غير كاف، فانه يرجع كل شيء اليه. . . وهذا ما اكده اكثر من اي شيء آخر!»

لمع بريق شحيح في نظرات دون البيرتو وارتسمت ابتسامة صغيرة على وجهه. فوجئت سيرينا بردة فعله وانزعجت بعض الشيء، ونهضت مسرعة، لكنه مد اليها يده واعلن بلهجة هادئة قائلا:

«سامحيني، يا عزيزتي، لكن سبق وسمعت هذا الكلام من قبل، وبالحماس والصدق نفسهما. ذلك ان المرأة التي اصبحت كنتي كانت تتكلم مثلك تماما. وبالنسبة اليها، عليّ ان اقول صراحة اني احتجزتها في المزرعة بنيّة تزويجها ابني. ستقولين اني مازلت في الهاجس نفسه. . . وابني كان رجلا ذا طباع غريبة. لا يمكن قهره بسهولة، ولا يختلف عن حفيدي الذي شاهدته اليوم. كان يفضل العمل برفقة الرعاة وكان يحسدهم على حريتهم، ولم يكن هو الذي يتحمل مسؤولية ادارة وحراثة هذا المشروع الكبير، الذي اعتبره دويلة كبيرة داخل دولة. كل المسؤوليات والهموم والاعباء التي تنبثق عن هذا الثقل اتحملها وحدي انا! وكان هناك العديد من الفتيات من

العائلات الرفيعة اللواتي كن يتمنين الزواج منه. لكنه لم يكن ميالا الا الى النساء الاقل احتراما، اللواتي يعاشرهن الرعاة في حانات المدينة. وهذا ينطبق الآن على حفيدي وأصدقائه».

زان صمت طويل ثم تابع يقول:

«لم اختر هذه الفتاة بنفسي. لقد وصلت الى هنا بطريق الصدفة، لكن، يجب ان اعترف لك انني منذ رأيتها، خطرت ببالي فكرة جهنمية. واردت ان انفذها بتسهيل اللقاء بينهما الى ابعد حد. في البداية كانت اللقاءات تتم في مناخ عدائي. لكني فرحت كثيرا عندما علمت ان العلاقة بينهما بدأت تتوطد تدريجيا. وكما توقعت، اخذا يشعران تجاه بعضهما البعض بالحنان الذي تحول فيما بعد الى حب كبير. وبالتالي تغير طبع ابني بشكل كلي. وعرفا معا سعادة كبيرة يا سينيوريتا. ولا يمكنني ان اعبر لك بالكلمات ما شعرت به عندما علمت بالمأساة... لذلك ارغب من كل قلبي ان يقدم خوان، ثمرة هذا الحب، على زواج سعيد وان يسعد مثل والده... هذه هي امنيتي الفريدة، لا يمكنك ان تلوميني ان اقدمت على تحقيق هذه الامنية، حتى ولو كنت تفكرين في اعماقك انني معاذ الله اعتبر نفسي متساويا مع الخالق الكبير عزّ وجل».

اقتربت سيرينا من المدفأة وانحنت صوب النار المتوهجة التي انعكست على وجهها حيث ظهر تشوش عميق وارتباك وحيرة. انها تشعر نحوه بالشفقة، لأنه يعتبر نفسه ذلك الحاكم المستبد بمملكته الصغيرة ومقتنع بقدرته اللامتناهية. كان الامر مضحكا ومؤسفا في الوقت نفسه. الكونت دون البيرتو، ملك المزارعين! سيتقاعد آملا ان تصبح هي ملكة المزرعة... فشعرت بالتواء ساخر ومر في فمها.

غير ان ملامح وجهها حافظت على الوقار والرصانة عندما التفتت الى العجوز الذي كان جالسا في مقعده منحنيا الى الامام ويده على ذقنه. لم تكن تريد ان تجرح شعوره، فأعلنت بلهجة متزنة قائلة:

«آسفة، سينيور، لكنني غير قادرة على قبول ترتيباتك...»

هزّ رأسه احتجاجا فاضافت في الحال بحزم كبير:

«نعم انها ترتيبات... كل انسان حر ان يتصرف بحياته كما يرى مناسبا ان كان هذا الانسان حفيدك ام اي شخص آخر. انا متأكدة باقتناع انك لا تفعل ذلك بانانية وانك تتمنى بكل اخلاص سعادة خوان، لكن...»

توقفت لحظة ورمقت العجوز بنظرة صافية وسألته:

«هل فكرت بأن النجاح الذي احرزته في ما يتعلق بابنك كان مجرد حظ، وان هذا النوع من التجارب لا يمكنه ان يؤدي الى النتيجة نفسها؟»

لم يعد يحتمل الشك بقدرته فقال بغضب شديد:

«الطبيعة الانسانية لا تتغير، سينيوريتا! الاجيال تتلاحق والسنوات تمر والانسان مازال ينقل الى نسله الطباع والعاهات والفضائل والعيوب نفسها. في عروقي يجري دم الغزاة الاول. فقد ورثت عنهم حب المغامرة، وكراهية الخوف والانانية والعنفوان. وكان ابني يتمتع بهذه الصفات واليوم اراها عند حفيدي. ولهذا السبب افهم تصرفاته تماما. ان ردات فعله تشبه ردات فعلي... ولهذا السبب انا متأكد ان ما اقدمت عليه ليس خاطئا ولا يقبل بالفشل.»

قالت سيرينا بهدوء وهي تضم بشدة يديها المرتجفتين على بعضهما:

«ولكن ما حدث يؤكد استحالة مهمتك، مخططك باء بالفشل لأنك نسيتني بكل بساطة. . . وانا ما ازال موجودة، سينيور، من دوني، لا يمكنك ان تحقق اهدافك! اني ارفض الاشتراك في هذه الترتيبات وآمل ان تعفيني من تحقيق العهد الذي قطعته. اتمنى العودة الى بلادي باسرع وقت ممكن. . . ولا سبب لأن ارى حفيدك بعد الآن!»

وضع دون البيرتو كأسه على الطاولة بهدوء، ثم اقترب منها بتعال، فتهيأ لها انها خادمة امام معلمها وكادت ان تحني رأسها خضوعا. كان ينظر اليها بتفصيل يقيسها مطولا ثم قال بلهجة باردة ومراعية:

«اخشى ان يكون ما تتمنينه مستحيلا. اذكرك بأنه سبق وعقدنا صفقة لا مجال للتراجع عنها. هذه الملابس التي ترتدينها، وهذا المنزل الذي تسكنينه، انت واختك، دليل قاطع. . . ويحق لي ان انتظر منك امتثالا وطواعية».

توقف لحظة ثم اضاف:

«وكما لاحظت فالمزرعة مقطوعة عن العالم. اذن، لا مجال ان تأملي في الهروب والرحيل. انها اضاعة للوقت. كي تخرجي من هنا عليك ان تأخذي الطائرة. وتلك التي نملكها لن اضعها تحت تصرفك. عليك اذن ان تبقي هنا، شئت ام ابيت!»

اطلقت نواحا عميقا وشحب وجهها وقالت بغضب:

«بامكانك ان تعتبرني سجينة لديك، لكنك لن تتوصل ابدا لأن تجعلني اتزوج حفيدك بالقوة!»

اجاب دون البيرتو من دون اضطراب كأن شيئا لم يكن:

«في البداية، المرأة التي جاءت قبلك كانت تفعل مثلك في جميع تصرفاتها. وردة فعلك هذه لا يمكنها الا ان تؤكد لي نجاح مهمتي. ولذلك انا مسرور جدا. . .»

القمر يلقي اشعته البيضاء على سرير سيرينا حيث ارتمت منذ ساعات بعدما هرعت راكضة من قاعة الاستقبال، حانقة على دون البيرتو وخائبة لحظها السيء. فقرار الكونت الذي لا رجوع عنه وضعها في حالة حزن وكآبة. والآن تعتبر هذا المنزل سجنا وهذه الغرفة زنزانة حيث بامكانها ان تتأسف على مصيرها وتندم. شدت على معصميها وانزلقت تحت الاغطية وراحت تنتحب باكية وتصرخ:

«انا مجنونة. حقا مجنونة. لماذا لم يخطر ببالي انني بقبول هذه الصفقة، رميت نفسي في مأزق؟»

صحيح انها استعدت لقبول كل العواقب التي ستنتج عن هذا القرار، لكن الرجل الذي قبلت الزواج منه لم يظهر عن حقيقته الا اليوم. . .

كبتت دموعها ونهضت خارج السرير وخلعت فستانها بقسوة، هذا الفستان الذي هو هدية من دون البيرتو. . . وشعرت سيرينا بالخجل لما فعلته برغم انها تعرف ان سبب ذلك يعود الى ويندي غير انها احست بالقرف من تصرفها.

كان ذيل قميص نومها الشفاف يمسح ارض غرفتها ذهابا ايابا ثم جلست قرب النافذة وظلت مسمرة مكانها مدة طويلة كالبلهاء. فجأة سمعت خشخشة صغيرة وبعدها عم صوت عميق. ثم اقنعت نفسها بأن ما سمعته ليس سوى وهم مخيلتها. لكنها سمعت

الخشخشة نفسها مرة ثانية. فالتفتت سيرينا حولها وفتحت عينيها جيدا تبحث في ظلمة الغرفة علها ترى شيئا. فلاحظت ظلا يتحرك ويقترب منها. ارتعبت ولم تجرؤ على القيام بأي حركة. بريق معدني لفت نظرها وعلى ضوء القمر الشحيح رأت البكلة الفضية المعلقة بالزنار الجلدي الاسود فعرفت من يكون صاحبها، واستعادت صوتها وقالت باستغراب:

«ماذا تريد؟ كيف سمحت لنفسك بالدخول الى غرفتي من دون سابق اتفاق، يا دون خوان!»

قهقه ضاحكا واقترب منها يترنح وشعرت بنفسها على وشك السقوط. وقال ساخرا:

«انا بحاجة للحديث معك. في الحقيقة، فكرت مطولا بالوضع الدقيق الذي وجدنا فيه... واعتقد انني عثرت على حل لذلك.»

ادركت بانزعاج انه دائخ. والعطر الخفيف الذي يرطب قميصه يدل انه لم يقض الليل وحيدا. قالت:

«انا ايضا، اخذت قرارا نهائيا. قررت ان ارحل من هنا... واريد ان تعدني بمساعدتي في العودة الى بلادي».

امسك كتفيها بشدة. وراحت ترتعش عندما بدأت يداه تمتدان الى جسمها نصف العاري، لكنها ظلت جامدة رافضة ان ترجوه الا يفعل ذلك.

قال صارخا:

«هذا مستحيل! انه يشوش مخططي! اليك ما انوي فعله: سأتزوج منك... لكن عليك الا تعتقدي اني سأفعل ذلك لأني اخضع لارادة جدي. ابدا. اريد ان القنه درسا وابرهن له ان زواجا

مدبرا بهذه الطريقة الجهنمية لن يؤدي إلا الى الفشل... الفشل الذي سيؤلمه كثيرا. صحيح إني بزواجي سأحقق له امنيته العزيزة على قلبه، لكن عليه بالمقابل ان يفي بوعده».

بالكاد نطقت سيرينا قائلة:

«وعد ؟ أي وعد؟»

«ان يعهد الي ادارة المزرعة بكاملها. لا اريد شيئا آخر. لقد اشتغلت كثيرا بلا هوادة لأنني اعرف ان ملكية هذه المزرعة ستكلفني عذابات شتى! واخيرا وضعني جدي امام الامر الواقع: الزواج ام خسارة المزرعة. وليس فقط الزواج انما هو الذي سيختار العروس! واذا رفضت سوف يحرمني من الميراث. لكن يا سينيوريتا سنحتال على هذا الثعلب معا... لندعه يعتقد انه سيد الوضع. فقد اصبح عجوزا ولن تدوم عظمته الى الابد!...»

ارتعشت امام لهجته المحزنة، فأضاف يقول:

«بعد بضعة سنوات، سيموت، وكل واحد منا يذهب في طريقه. لكن في الوقت الحاضر ارغب ان نتزوج. سيكون الاحتفال شكليا ولن يربطنا اي قسم أو يمين طبعا لن اغير تصرفي وبالنسبة اليك سينيوريتا، اعتقد ان الزواج واللقب الذي ستنالينه سيكونا عزاءين كافيين. سأتجرأ وأسألك، الست زوجة سبق وعاشت من قبل خبرة الزواج، اقصد بذلك انك كنت ملكا لرجل آخر؟»

هذه الملاحظة الاخيرة كانت بالنسبة الى سيرينا صفعة حقيقية. شعرت فجأة تجاهه بقرف وحقد وضغينة، الى درجة انها كادت ان تبوح له بحقيقة ويندي، فقط من اجل ان يعتذر عن هذه التهمة الشتيمة. غير ان غريزتها نبهتها الا تقدم على فعل كهذا. وتبين لها

بوضوح ان دون خوان دي فالديفيا لا يمكنه قبول كون زوجته قد ملكها رجل آخر قبله. ولهذا السبب، فهو يتعذب بانانية وعنفوان لأنه سيضطر قبول ذلك ولو بصورة شكلية. . .

ظلت سيرينا صامتة فأسرع يقول:

«اذن، ما رأيك؟ هل انت مستعدة لمساعدتي لمواجهة هذا الثعلب العجوز؟»

فسألته قائلة ببرود وحقد:

«ايمكنني الاختيار؟»

ظل دون خوان مسمرا عينيه الثاقبتين في وجه الفتاة الشاحب. وهو مازال ممسكا بها. وسيرينا تحاول جاهدة ان تظلّ هادئة وغير مبالية. اطلق ضحكة ساخرة وقال:

«هذا الجمال الذي تتحلين به لا يبدد ضجري ولا يؤثر بي يا سينيوريتا! في بلادنا، النساء لسن باردات، بالعكس، انهن شغوفات، حارات مضطرمات. . . لذلك فلا تخافي مني، بصفتي زوجك في المستقبل: لن احاول ابدا ان اتقاسم فراشك! هل هناك اسوأ من عناق كتلة جليد؟»

وللحال ابعدها عنه بعنف، فقالت بغضب:

«افهم اشمئزازك، يا سينيور. انا اشعر نحوك بالشعور نفسه! يؤلمني ان ارى نفسي في غرفتي بصحبة رجل دائخ. . .»

اصابته في عزة نفسه وكانت ردة فعله ان حملها من دون اي جهد وجذبها نحوه في شدة قائلا واسنانه تصطك:

«آمرك ان تعتذري مني. والا ستندمين عما قلته!»

قالت وهي تتخبط للتخلص منه:

«اتركني. ابتعد عني!»

«ليس قبل ان تعتذري على ما قلته الآن».

«وعن ماذا تريدني ان اعتذر؟ لأني قلت الحقيقة؟ لم اطلب منك ان تعتذر مني عندما شتمتني، انت الرجل النبيل».

ابعد رأسه الى الوراء واطلق ضحكة ساخرة ومتعجرفة وقال:

«لم اعتبر نفسي ابدا رجلا نبيلا! هذا النوع من الرجال الضعفاء الذين يمضون معظم أوقاتهم في النوح، لا اعتقد انا ان هذا النوع من الرجال يعجبك، يا سينيوريتا؟»

«اني افضل الرجال الذين لا يستعملون القوة الا بعد ان يجربوا كل وسائل الاقناع الاخرى!»

«اني افكر عكس ذلك. فالتصرف بهذه الرقة يرهق من دون جدوى. من الافضل استعمال القوة منذ البداية!»

وكي يدعم قوله، ضمها نحوه بشدة وانصب عليها بغضب بارد كأنه يريد ان يقاصصها ويحقرها. وتذكرت سيرينا ما قاله في ما يخص نساء تلك البلاد، فارغمت نفسها على البقاء جامدة من جليد. وهكذا، ببرودها التام، تؤكد له رفضها الدخول في لعبته، وفي الوقت نفسه تظهر له عن كرهها واحتقارها لغلاظته.

ومن دون اظهار اي ندم، ابتعد عنها وابعدها عنه. ثم ابتعد بخطى فخورة. ولما وصل الى الباب اعلن قائلا:

«حافظي على العناق لنفسك، يا ايتها الآنسة الباردة! لا اعرف اذا كان واجبي الاعجاب بذلك الرجل الذي توصل ان يجعل منك امرأة كاملة واما لطفلة، ام يجب ان اتأسف عليه!».

٦ - حفل الزواج

بعد اسبوع، بدأت الاستعدادات للاحتفال بزواج خوان وسيرينا في كنيسة صغيرة تابعة للمزرعة. واختصر عدد المدعوين الى الحفل بسبب قصر الوقت، فكان الحضور مؤلفا من الاقرباء والاصدقاء المقربين.

وقام دون البيرتو بتدبير المعاملات الرسمية الضرورية. فقد فوجىء بتقلب آراء خوان من جهة، وباصرار سيرينا عليه الا يبوح لحفيده بحقيقة امر شقيقتها ويندي.

حينذاك قال صارخا:

«ولماذا، ياصغيرتي؟ كوني انسانة طيبة وتفهميه، وانتشلي هذه الشوكة من خاصرته... لماذا لا تنقذيه من الشكوك التي تزعج

خواطره وتؤلمه؟»

فأجابت بجفاف:

«ليست في نيتي ان اكون طيبة معه. فأنت رفضت فك ارتباطي وارغمتني على قبول هذا الزواج... لكن هناك شرط اريد منك ان تحترمه وهو الذي يتعلق بويندي. فاذا بحت بهذا السر لن يتم الزواج!»

بالنسبة الى دون البيرتو، كان ما قالته تفصيلا لا يستحق التوقف عنده. رأى نفسه على مقربة من تحقيق اهدافه... وغير مستعد للتوقف عند امور تافهة بامكانها ان تفسد مخططاته.

اجابها قائلا:

«اتفقنا. ما دمت مصرة على ذلك...»

حكّ ذقنه مفكراً، وسرعان ما انارت الابتسامة وجهه وقال:

«ربما تصلين الى تحقيق اهدافك، اذ مازلت تصرين على هذا الشرط. انت امرأة ذكية وأنا لست بغبي. فخوان بحاجة الى حجة متينة كي يقبل بالزواج... هل احس بالشفقة نحوك؟ ام انه شعر بانجذاب باطني من دون ان يعي ذلك؟ هذا ما اجهله. في كل حال انا مستعد ان ارتكز على حدسك كي اضرم عواطفه واوقظ عنده المشاعر الودية... نعم، يا عزيزتي، حافظي على هذا السر مهما كلف الامر وبجميع الطرق! فآل فالديفيا يتميزون بحب التملك والغيرة، وخاصة الرجال. بوجود شقيقتك الصغيرة سيظل يتذكر باستمرار انك كنت في الماضي ملكا لرجل آخر...»

وبينها كانت سيرينا ترتدي ثوبها المخرم، حالمة مترددة، ايقنت بانها ستغدو رمزا لتلك المرأة التي سبق لها ان تزوجت من قبل وهي

الآن على استعداد لخوض هذه المغامرة مرة اخرى. ورددت في ذهنها وهي تقول: اليس هذا ما كان يقصده دون البيرتو؟

ولحفل الزواج اختارت سيرينا ثوبا ابيض واسعا مبطنا بالحرير، اظهرت اكمامه الشفافة بشرتها المخملية الناعمة. ورفعت شعرها الاشقر الطويل جدائل بشكل تاج ذهبي، وزينتها بالزهور البيضاء التي خففت من رصانة تسريحتها. لكن عينيها الكئيبتين وملامحها المشدودة وشحوب وجهها كانت كلها تعبر عن خوف اليم وحذر عميق. فلم تغادر غرفتها منذ الصباح. ومن النافذة المفتوحة كانت تسمع اصوات المدعوين الذين قصدوا المزرعة من بعيد، معظمهم استقلوا الطائرات.

كان المنزل يعجّ بالناس والاصوات تطنطن مثل وكر النحل. لكن سيرينا تملكها الحذر ولم تغامر بالظهور امام الجمهور، لأنها تعرف جيدا انها ستكون نقطة اهتمام الحضور. كما كانت متمسكة بقول قديم مفاده ان لقاء الخطيب مباشرة قبل حفل الزواج لا يجلب الحظ...

بعد قليل دوت اصوات محركات السيارات المتجمعة تحت الشرفة وتوجه المدعوون الى الكنيسة. شعرت سيرينا بتقلص مؤلم في معدتها. فلم تتناول سوى الطعام الخفيف وبعض القهوة، برغم تحذيرات الخادمة. ومع آخر سيارة تبتعد عن المزرعة، احست سيرينا فجأة بضعف فاستندت على ظهر كرسي بجانبها. وفجأة سمعت طرقا على الباب فراح قلبها يخفق بسرعة. وبعد لحظات قالت متلعثمة:

«ادخل»

ظهرت كارمين الخادمة، حمراء الوجه، كثيرة الحماس وانحنت امامها مثل خادمات القرون الماضية. وسلمتها قطعة قماش طويلة من الدانتال الكريمي اللون وقالت:

«الطرحة يا سينيوريتا... سبق وارتدتها من قبل كل العرائس اللواتي ينتمين الى عائلة فالديفيا».

فرجعت سيرينا الى الوراء بشدة وقالت:

«لا، شكرا. لن احتاج اليها».

فتحت كارمين عينيها السوداوين متعجبة وقالت بغضب:

«لكن، يا سينيوريتا انه محرم ان تدخلي الكنيسة مكشوفة الرأس! يجب على العروس ان تصون وجهها وتحميه من نظرات المتطفلين... الم تري كيف تسرح عندنا النساء شعرهن وكم هن انيقات!»

وضعت كارمين الطرحة على راس سيرينا من دون ان تترك لها مجال الاعتراض ثم سوت اطرافها المطرزة فوق الخدين الشاحبين وصرخت:

«رائعة انت هكذا، يا سينيوريتا. هل اعجبتك؟»

قالت الفتاة غصبا عنها:

«نعم انها طرحة جميلة. لكن الن يفاجأ دون البيرتو برؤيتي اعتمر هذه الطرحة الناعمة والثمينة؟»

هزت كارمين رأسها بحماس وقالت:

«لن يرفض الكونت شيئا لزوجة حفيده الجميلة!»

الزوجة الجميلة! اغتمّ قلبها وتحسرت: فاضافت الخادمة المتألقة تقول:

«الكونت ينتظرك. لم يبق احد هنا غيرنا».

سألتها سيرينا بصوت مخنوق:

«ودون خوان، اين هو؟»

قالت كارمين وهي تكبت ضحكتها:

«في الكنيسة من دون شك. لا شك انه في انتظارك بفارغ الصبر.. امامك دقائق معدودة. لندخل الآن».

هبطت سيرينا السلالم ببطء وقدماها ترتجفان. وظلت متمسكة بالدرابزين لئلا تقع او تفقد توازنها. المنزل كان خاليا كليا والجو مازال يعبق برائحة السكائر وعطور النساء. كان دون البيرتو ينتظر بهدوء داخل الصالون. وما ان سمع وقع خطوات الفتاة حتى التفت الى الوراء واعلن بلهجة دافئة:

«انت حقا رائعة، يا عزيزتي. وجميع اصدقاء خوان سيحسدونه عليك!»

جذبها نحو النافذة. امامها تمتد الحديقة المشبعة بالشمس الحارة. تركها الكونت هناك بضع دقائق وراح يفتش في درج مكتبه. فارتعبت سيرينا عندما سمعت صوت دون البيرتو يدخل اذنيها قائلا:

«هذه هدية العرس. وسأسر لو تفضلت ووضعته خلال حفل الزواج».

فتح العلبة واخرج منها عقدا من اللؤلؤ ودعاها للاقتراب نحو المرآة.

قالت بصوت حيادي:

«اشكرك. انه لشيء رائع. لكن بما انك الآن على وشك تحقيق

امنيتك العزيزة لم تعد بحاجة لأن تقدم لي الهدايا الثمينة. لقد اعطيتني مسكنا، لي ولويندي، ولا اريد اكثر من هذا».

كان في الوقت الحاضر مستعدا لان ينسى كل شيء. لكن ما قالته الآن ذكره بالصفقة فقطب حاجبيه وقال:

«ارجوك ان تقبلي هذه الهدية التي ليست سوى شكر وعرفان بالجميل من قبل رجل عجوز سعيد ان يستقبلك داخل عائلته وان يجعلك واحدة منها. ولهذا ارغب منك ان تناديني ابويليتو، ما دمت ستصبحين بعد لحظات قصيرة زوجة حفيدي. ويشرفني اذا اعتبرتني جدك، انت وويندي. وعليَّ ان اقول لك من دون مواربة، بأن ويندي لفتت انظار ومودة الجميع، في اقل من اسبوع»

ابتسامة عابرة مرت على شفتي سيرينا. في الحقيقة، لقد تهافت على ويندي المعجبون الشغوفون الذين احاطوها بالاهتمام التام، وهي فهمت بطريقة سرية انها ستبقى في المزرعة بصورة دائمة. وكان دون البيرتو يغتنم الفرص ليأخذ الطفلة بين ذراعيه ويكلمها. والخادمتان كارمين وبيللا تلبيان رغباتها وجميع نزواتها. بينما كان خوان يردّ على مبادراتها بابتسامة بطيئة.

وكلما تواجد خوان بجوارها، لا تعود الطفلة تهتم الا به وتظل ترمقه بعينيها الواسعتين الزرقاوين. وكانت ترسل اليه القبلات بالحاح تجعله مضطرا ان يرد عليها بالمثل او ان يهز لها رأسه هو الذي لم يتعود على وجود اطفال بقربه. غير ان سيرينا لاحظته مرة من دون معرفته بينما كان يلاعب ويندي بالطابة. وبنهاية اللعب راح يداعبها بلطف وحنان ويلامسها تحت الذقن حتى كادت الطفلة تقهقه من شدة الضحك.

اصر دون خوان على ان تحضر ويندي حفل الزواج. فاصطحبتها الخادمة قبل موعد الاحتفال بعشر دقائق. وكانت ترتدي فستانا ناعما من الازرق الفاتح يليق بلون عينيها، وشريطة زرقاء تزين خصلات شعرها.

«تعالي يا عزيزتي، حان لنا الوقت للذهاب».

فجأة افاقت سيرينا من احلام اليقظة لكن دون البيرتو اضاف قائلا:

«اني في غاية الامتنان لأن اسمح لنفسي ان احل، في هذا اليوم، مكان والدك الذي فقدته منذ فترة وجيزة».

تلألأت الدموع في عينيها، لكنها تمكنت من السيطرة على انفعالها. انها تخضع لسحر هذا الرجل العجوز، لكن عليها ان تتذكر باستمرار قساوته نحوها. كان عليها ان تشعر بالغضب نحوه، لكن في هذه اللحظة بالذات لم تكن تشعر لا بالحقد ولا بالمرارة...

خرجا الى الشرفة ومن هناك توجها نحو السيارة. في هذا الوقت اسرعت ويندي نحو سيرينا وعيناها مبللتان، فضمتها كارمين اليها في عاطفة كبيرة وقبلتها على الخدين وهمست لها ببعض الكلمات باللغة الاسبانية. فهذا التصرف الامومي من قبل الخادمة جعل سيرينا تضطرب بعمق. لكم كانت سيرينا تتمنى ان تكون والدتها حية ترزق وتكون بجانبها في هذا اليوم التاريخي... فاحتلها انفعال قوي واندفعت الدموع من عينيها. وفكر دون البيرتو وهو يراها ان نظراتها الزرقاء الجميلة قد تعكرت، مثل بحيرة حين تعصف الريح وتبدأ العاصفة:

قدم لها منديلا، لكن العاصفة لم تهدأ فاصطر الى ان يذكرها

قائلا:

«المدعوون بانتظارنا، يا عزيزتي وكذلك خوان. والصبر ليس من فضائله».

انتصبت سيرينا ورفعت ذقنها بشجاعة وقالت بصوت غير مطمئن:

«المعذرة. اني مستعدة الآن».

اعجب دون البيرتو بقوة ارادتها واعترف في داخله ان الفتاة تتمتع بذكاء وجرأة.

ظلت كارمين تلوح بذراعها حتى اختفت السيارة عن الانظار. ثم صعدت السلالم المؤدية الى الشرفة المزينة بأناقة لهذه المناسبة. كان عليها ان تبقى في المنزل كي تشرف على تحضير مأدبة الغداء الذي سيقدم للمدعوين.

وفي طريقها الى الكنيسة لاحظت سيرينا وجود شرائط القناديل الملونة المصنوعة من الورق، معلقة بين الاشجار. في المساء كان العشاء الفاخر سيعد للرعاة وعائلاتهم وسيتم هناك تحت هذه الزينة.

قال دون البيرتو بغية تشجيع الفتاة:

«ستحبين كنيستنا الصغيرة، يا عزيزتي. فقد بناها اسلافنا. ودخلها المؤمنون بفرح كبير وانا اراكما، انت وخوان، تمارسان هذا التقليد».

في لحظة كلمح البصر، كادت ان تضحك منه لانه بدأ يعتبر هذا الزواج المفبرك كأنه زواج حقيقي. لا شك انه يأمل، على المدى الطويل، ان تتحقق هواجسه واوهامه.

فجأة دوت الاصوات من جميع الجهات وظهر الفرسان من وراء

غيمة غبار كثيفة واحاطوا السيارة. كانوا يطلقون الصياح الصاخب ويشبهون الدراويش المولولين. وفي صفوف مشدودة جاء الرعاة ليؤلفوا الموكب. كانوا يرتدون معاطف البانشو الملونة ودروع الساق الجلدية السوداء المعلقة فوق الركبة وينتعلون الاحذية العالية ذات الاكعاب المرتفعة والمزينة بالمهاميز المحيكة باليد. وفي ملامح وجوههم النحيلة التي لوحتها الشمس التعبير اللامبالي والوقح نفسه. وصلوا الى اسفل السلالم التي تؤدي الى الكنيسة وظلوا يطلقون صياحهم الثاقب.

وعندما نزلت سيرينا من السيارة، خلعوا قبعاتهم العريضة في تحية ساخرة. فهزت الفتاة بخجل رأسها، ثم دخلت الى الكنيسة متأبطة ذراع البيرتو، وراح الارغن يعزف مقطوعة رائعة. وفي خطى بطيئة توجها الى حيث كان خوان بانتظارهما. كادت سيرينا ان تجهله بثيابه الغريبة لكن ملامح وجهه النبيلة كانت تعبر عن رصانة غير اعتيادية.

لعبت سيرينا دورها بغاية الكمال وكأنها في حلم. وبالكاد شاهدت الزينة الفاخرة والجمهور الغفير على المقاعد والبنوك. الرجال ينتصبون باعتزاز قرب زوجاتهم اللواتي يرتدين الملابس الانيقة والفاخرة.

كان شبح سيرينا النحيل تغمره اشعة الشمس الملونة التي تتسرب من خلال الزجاج، وبهدوء ظاهري، لفظت امنياتها بصوت صارم. ومن دون انفعال وفي حالة غيبوبة، لم ترتجف ولم ترتعش، عندما ردد خوان برباطة جاش واتزان الكلمات السرية قائلا:

«اني اقسم لك الاخلاص والحماية والحب حتى يفرقنا الموت...»

اطلقت زفرة عميقة. ليس ما يقوله سوى كذبة صغيرة. لأن موتا آخر، موت دون البيرتو، هو الذي سيجعلهما احرارا من جديد. فهي لا تشك بأن دون خوان سيفي بوعده بالحاح وبسرعة.

انغلقت يد خوان الطويلة والقاسية على يد سيرينا وادخل خاتم الزواج في اصبع يدها اليسرى. فارتعشت رموش عينيها وتشابكت نظراتها ولمحت سيرينا في نظرته لمعانا ساخرا، فحولت عينيها بسرعة.

اقترب دون البيرتو ليقبلها. ولم تنتبه الا في هذه اللحظة بالذات ان مراسم الزواج اشرفت على نهايتها. فاسترخت قليلا. وبينما كانت خارجة من الكنيسة متأبطة ذراع زوجها، راحت تبتسم للجمهور. وما ان اصبحت خارج عتبة الكنيسة، حتى ارتفع صراخ التهنئة وسطعت اشعة الشمس البراقة، فلم تمنع نفسها من اقفال عينيها على جفنين مرتعشين. وبينما كانا يهبطان السلالم، راح الجمهور يمطرهما بوابل من الورود والزهور المختلفة.

ضحك خوان ودفع بسيرينا نحو السيارة. لكن زوجات الرعاة ابدين اصرارا على رؤية العروس من قريب فتجمهرن وراءها. واذا بخوان يحملها ويدفعها داخل السيارة. احمرت وجنتا سيرينا مما زاد في حماس الجمهور الذي صرخ يقول:

«قبلها، سينيور! قبلها!»

وبالفعل اطاع خوان. فاخرج زوجته من السيارة واوقفها في قسوة افقدتها نفسها. ثم امسكها بعنقها وجذبها بنخوة نحوه. ودفعها داخل السيارة من جديد ودخل وراءها. وتمكن بصعوبة من اغلاق الباب بسبب الجمهور الذي انصب حولها. اقلعت السيارة وافاقت

سيرينا من الارتباك والخجل من جراء هذه القبلة وحدقت بعيني خوان السوداوين وصرخت تقول:

«ليس في الصفقة التي عقدناها ما يسمح لك ان تتصرف على هذا النحو! ان تعاملني كالفتيات اللواتي تمضي معهن بعض الوقت في الحانات والبارات الوسخة في المدينة... كيف تجرؤ على ذلك؟»

اختفت ابتسامة خوان وقال بجفاف:

«بدأت تذكرينني بتلك الزوجات اللواتي لا يكففن عن التذمر. يا سينيوريتا! يضاف الى هذا، اننا لم نعقد اي صفقة. لقد طلبت مني ان اتزوجك».

واضاف قائلا:

«لقد قلت لك انك ستتزوجينني. غير اني اعترف ان لديك بعض الحقوق بصفتك زوجتي. اذا كان خروجي الى المدينة برفقة النساء يزعجك فأني مستعد ان اتخلى عن ذلك. في كل حال، لم يعد هناك اي سبب كي اتمادى في هذا. تبدأ الهموم مع الزواج. لكن العزوبية لا تجلب الفرح. والآن، بما اننا متزوجان، فمن واجبك ان تخففي عني هذا الحمل».

٧ - أقاويل الحضور

بعد قليل راح العروسان يستقبلان المدعوين على مدخل الصالون.

كان الفضول يحتلهم فراحوا يراقبون العروسين خفية ويتلفظون بالملاحظات الخاطفة باصوات منخفضة. ولدهشة سيرينا اقترب خوان من بيللا وامرها قائلا:

«اذهبي وانضمي الى اصدقائك وتمتعي بوجودك معهم مدة ساعة. وسنهتم نحن بالطفلة.»

امسك ويندي في ذراعيه وفي الحال اشرقت عينا الطفلة الزرقاوين وراحت تزقزق كالعصفور وتلامس بيديها خدي خوان السمراوين.

ولشدة دهشتها رأت سيرينا زوجها يتجاوب مع اهتمام اختها المليح.

وخلال لحظات قصيرة تغيرت ملامح وجه خوان. فمه القاسي ونظرته الساخرة ورصانته المتعالية، كلها امتلأت بحنان كبير. فشعرت المرأة بارتباك لم تصدق ان هذا الرجل الفظ والعنيف والحازم بامكانه ان يتمتع بهذا الحنان وهذه النبرة اللطيفة.

ولما بدأت ويندي تلعب بشعره الاسود المشعث، راح خوان يقهقه ضاحكا بصوت مرتفع مما لفت نظر الحضور كله. وفي هذا الوقت بالذات دخل دون البيرتو الى الغرفة متأبطا ذراع امرأة عجوز ذات شعر ابيض كالثلج وقوام نحيل. كانت ملامحها متعالية ومتحفظة وتشامخة، مما يدل على انها تنتمي الى بيئة اجتماعية كالتي ينتمي اليها رفيقها. وتدريجيا عم الصمت في المكان. كل انسان حبس انفاسه. شعرت سيرينا باضطراب داخلي وتوتر عميقين واستعدت لتحمل هذا اللقاء.

تقدمت المرأة العجوز المتكئة على عكازها من العروسين بخطى ثقيلة وتوقفت قربها. فبدأ دون البيرتو بتقديم العروس والطفلة، لكنها ردعته بحركة سريعة وقالت بلهجة متحدية:

«ها انت يا خوان تتحمل اعباء عائلة بكاملها، زوجة وطفلة. يتهيأ لي لدى رؤيتك ان هذه الطفلة ابنتك...»

ارتج الحضور وامتلأ وجه سيرينا بالاحمرار. لكن خوان لم تبد عليه الصدمة. فملامح وجهه مسترخية ووجهه بشوش ومرتاح. انحنى بسخرية واجابها من دون اي اضطراب:

«هذا النوع من الحدس يظهر احيانا في محله، يا عمتي ايزابيلا...»

حاولت سيرينا كل جهدها ان تكبت استغرابها. فرد دون خوان

الوقح لا شك يتجاوب مع شكوك المدعوين بأن ويندي هي حقا ابنة خوان. وان هذا الاخير، هذا الرجل الشريف، يتحمل كل مسؤولياته في هذا النهار التاريخي. حينئذ فقط فهمت سيرينا بوضوح خطة خوان. بزواجه منها، فهو يريد تمويه ماضيه الفاسق وبالتالي لن يعود مضطرا لتحمل شفقة الناس الذين يشعرون، عادة بالشفقة لمن يقبل تحمل عبء طفلة من رجل آخر.

حتى عمة خوان ذات العينين السوداوين الحادتين انخدعت. فراحت تنظر اليه مفصلا الى ان ارتسمت الابتسامة على شفتيها وقالت بهدوء:

«سامحني يا صغيري وقدم لي زوجتك.»

وخلال الساعات التالية تهيأ لسيرينا ان هذه المجموعة الصغيرة المتعلقة بالقيم التقليدية كانت تنظر اليها بعطف وتسامح. كما ان كلمات خوان بدت كأنها الاعتراف الواضح المطلوب، وساهمت في تهديم الحاجز بينها وبين الحضور. وبينما كان العروسان يتحركان بين المدعوين، اسرع احدهم بالقول:

«افهم الآن لماذا كنت كتوما في ما يتعلق بغيابك، السنة الفائتة يا خوان! وصدقنا ما كنت تقوله انك كنت تقضي اجازة ترفيهية لا اكثر لا اقل... لكننا نعرف الآن، يا صديقي، ماذا كنت تفعل هناك!»

خيمت الحيرة على الجميع، لكن والد هذا الرجل اسرع في تغيير الحديث وراح يتكلم عن امكانية اسواق الماشية الحالية. لكن سيرينا ظلت تعاني صدمة الاهانة. فاحمر وجهها وهمست باعتذار غير واضح واخذت ويندي عن ذراع خوان وغادرت الصالون بسرعة. انزعج الحضور من تصرفها وتحلوا بالصمت.

من حسن حظها وجدت سيريتا بيللا في غرفة الطفلة واوكلتها بشقيقتها. وبارتياح توجهت الى الغرفة المجاورة. كانت تشعر بحالة قريبة من الارهاق والتعب. فخلعت طرحتها ورمتها على السرير واندفعت تجلس على الكرسي المواجه لمنضدة الزينة ولمحت نظرتها في المرآة. كانت عيناها تغليان غضبا. وراحت تتمتم قائلة:

«تبا له وليأكله الشيطان! كيف تجرأ. . .»

وقفت فجأة وراحت تخلع ثوبها وترميه ارضا، ثم ارتدت مئزرا اخضر وبدأت تسحب من شعرها الدبابيس العديدة حتى انسدل على كتفيها شلالات شقراء مكسوة بالازهار البيضاء العطرة. لم تسرح شعرها بل جلست امام النافذة المفتوحة ووضعت رأسها بين يديها وراحت تشتم هذا الرجل الذي تكرهه، هذا الرجل الذي عراها من عزة نفسها وكبريائها.

لكن لم تسنح لها الفرصة للحصول على هدنة. ولم تمضي الا عشر دقائق حتى انفتح الباب بقوة ودخل خوان الغرفة وقال بصوت قاطع بعد ان اخذ قراره النهائي:

«غيابك لاحظه الجميع وهم يتساءلون عن سببه. ارتدي ملابسك من جديد وبسرعة. سننزل معا الى الصالون».

نهضت سيرينا بسرعة وجسمها مشدود كسهم وقالت بلهجة حاسمة:

«انني اقول «لا» بكل تأكيد. بامكان مدعويك ان يتلفظوا بما يريدونه ويعلقون كما يشاؤ ون. لا يهمني ذلك! لكنني لن اعود الى الصالون وارجوك ان تتركني وحدي».

اقترب منها بنظرة مهددة وقال:

«لا تعانديني والا اضطررت ان اضع عليك ملابسك بنفسي! لديك خمس ثوان لتقرري. . .»

وقالت واسنانها تصطك:

«لن ارضخ لمطالبك!»

وامتلأت عيناها بتحد كبير واضافت تقول:

«اذا تقدمت بخطوة واحدة سأبدأ بالصراخ. . . وماذا سيقول المدعوون؟»

«اذا صرخت سأرغمك على السكوت حتى ولو اضطررت الى استعمال الوسائل العنيفة».

شعرت انه مصر على قراره ولن يتراجع عنه، وبالرغم من ذلك كانت تعبر عن عناد فاجأها هي بالذات. ان كبرياءها يمنعها من الاستسلام لرغبات خوان ويقنعها بأن خوان لن يجرؤ على تنفيذ تهديداته. فلا رجل بمركزه قادر على التصرف بقسوة من هذا النوع. رفعت في الحال ذقنها بفخر ونظرت اليه واثقة متحدية. فجأة غدرها خوان وتمسك بمئزرها وشده ناجحا في خلعه عنها. ثم رماه باشمئزاز على السرير بينما كانت سيرينا مصدومة من هذا العنف الرهيب ترتجف في كل انحاء اطرافها. لم تقدر على اصدار اكثر من صرخة خانقة. وبدا خوان اطبقتا على كتفيها العاريتين كمخالب حيوان مفترس. وهمس يقول بغضب:

«الم احذرك؟»

وجذبها نحوه. كأنه يريد معانقتها. . . لم يسبق لها ان شعرت مثل هذا اليوم باحساس عنيف الى هذا الحد. كأن موجة تجرفها وتعريها من اي حكم وتحليل. لم تكن قادرة على فهم نفسها واعتبرت ان

انفعالها عائد الى الكراهية والرفض اللذين تشعر بهما نحو خوان.
رفع هذا الاخير رأسه وقال:

«اذن. . . هل سترتدين ملابسك ام سأضطر الى. . .؟»

تمكنت من دفعه عنها. وهو بدوره تركها فقالت وهي ترتجف:

«انت شيطان حقيقي! لا يكفيك انك تهينني كما فعلت، بل تصر على معاملتي مثل بنات الشارع، لشدة ما عاشرتهن. . .»

«هل تعتقدين انك مختلفة عن تلك النساء اللواتي ينتظرهن الرعاة في الخانات والبارات؟ انهن يبعن انفسهن من اجل المال، تماما مثلك. بعضهن يعترفن بذلك وهن صادقات تجاه انفسهن. لكن هناك البعض الآخر، مثلك، يتصرفن ببراءة ونعومة ظاهريا ما يجعل الرجل يشعر تجاههن بالخجل ولا يجرؤ على الاقتراب منهن الى ان يجدهن بين ذراعي رجل آخر. . . يتظاهرن بالنعومة الملائكية، لكنهن مقيتات واكثر وضاعة من سواهن».

عرفت سيرينا اهانات كثيرة، لكن هذه الاهانة تفوقها كلها. وفهمت انه لن يتراجع امام اي شيء ليشفي غليل انتقامه. لكنها حاولت الدفاع عن نفسها وهي ترتجف انفعالا وتقول:

«لست ابدا مثل هذه النساء اللواتي تقارنني بهن. عندما قبلت المجيء الى هنا مع جدك. . .»

قاطعها خوان بجفاف قائلا:

«هذا المجنون المسكين بامكانك ان تخدعيه بسهولة اكثر مني. يعتبر نفسه كأنه يعيش في القرن الماضي. بالنسبة اليه، النساء بحاجة الى ان يدللهن الرجال ويحموهن. لا شك انك شعرت بصدمة كبيرة عندما تبين لك انني من نوع الرجال الذين لا ينساقون بسهولة، وان

الدموع لا تؤثر فيهم كما لا ينجرفون وراء حيل النساء. . . في اي حال، اننا نتصرف بقلة تهذيب امام مدعوينا».

اشار باصبعه الى الفستان الممدد ارضا. وقال بلؤم:

«اسرعي في ارتدائه. ولا داعي ان تمشطي شعرك، فلم يعد امامنا وقت.»

ابتسم في سخرية واضاف:

«عندما يرى الحضور شعرك المنسدل، سيعتقدون اني عانقتك بشغف وحماس».

سيرينا تتعذب كثيرا، وببطء راحت تلملم فستانها وتبدأ بارتدائه. انها تستسلم لأنها تخشى هذا الرجل وردات فعله غير المنتظرة. . . هذا الرجل الاناني مثل الريح والقاسي كالنسر.

كانت تتوقع ان يدير ظهره، لكنه لم يفعل. كتّف ذراعيه على صدره وراح يتأمل كل حركة تقوم بها، من دون ان يشعر بأي شفقة تجاه توترها. وفي ارتباك راحت ترتدي فستانها وتزرره باصابع مرتجفة، مما جعلها تستغرق وقتا مضاعفا عن العادة.

ثم توجهت نحو منضدة الزينة وراحت تسرح شعرها بسرعة. لا احد بامكانه ان يرغمها على ان تبدو مشعثة الشعر امام الحضور. وفي المرآة كانت تلمح في عينيه السوداوين ملامح ساخرة ولهوا كبيرا.
لكنها عندما التفتت نحوه كان تعبير وجهه غامضا

اقترب من الطاولة الصغيرة واخذ بيده عقد اللؤلؤ وقال:

«من الافضل لك ان ترتديه. . . انه مكافأة جيلة لك لقيامك بالخدمات المطلوبة. لا شك ان هذا العقد قد كلف العجوز اموالا طائلة!»

وضعته حول عنقها بارتجاف. لكن في اعماقها كانت غاضبة من نفسها. فاستغل خوان اضطرابها ليقول بوقاحة:

«بصورة اجمالية، اجدك مخيبة للأمل ومشوشة. لأنه كلما اقتربت منك، تعدلين عن بعض مواقفك بنفور وتجفلين. لكن في الحقيقة هذا التصرف لا يدهش. هناك عدد كبير من النساء الخبيرات يستعملن خجلهن وسذاجتهن كحاجز واق...»

ولما دخلا الى الصالون كان بعض المدعوين يغادرون المكان. وبارتباك ظاهري اضطرت سيرينا أن تسلم عليهم باليد وتبادرهم بالكلمات المحبية اللطيفة. وكان نظرها يشتبك بالنظرات الساخرة المليئة بالتعجرف أو بعض التسامح، واحيانا قليلة بالنظرات الرؤوفة، ونظرات الحنان. كل واحد من الحضور كان يبدو مرتاحا لانتهاء الحفل وهذا الاجتماع الصغير. بخاصة الرجال المسنين الذين يظهرون عن وجوههم الرصينة الغامضة تهذيبا، لكنهم لم يتكبدوا مشقة الانتقال الى المزرعة الا للصداقة التي تربطهم بدون اليبرتو، لأنهم لم يكونوا راضين عن حفيده. بنظرهم، لقد وسخ هذا الاخير الصيت المعروف عن عائلة محترمة ولم يعوض عنه الا بهذا الزواج الذي جاء متأخرا. لكن بالنسبة الى الزوجات، فكن يشعرن بالاطمئنان، لأن مستقبل بناتهن لم يعد مهددا. ولا احد يجهل ان دون خوان لا يمكن قهره، والدليل على ذلك الجهود المبذولة من قبل جده ليجعله يطيع اوامره، لكن من دون جدوى. انه يشبه جوادا متوحشا يرفض فضلات الطعام...

وبين الحضور كانت الفتيات وحدهن خائبات الأمل. ان تربيتهن قاسية وتعود الى اجيال وقرون ماضية. وبينما كن يحيين الزوجين

بعيون حزينة، كانت سيرينا على يقين ان هؤلاء المراهقات متى انوجدن في غرفهن سيطلقن العنان للبكاء.

ولما غادر المدعوون المنزل، اقتربت دونا ايزابيلا التي كانت تنتظر ذهابهم من سيرينا وقالت:

«تعالي واجلسي قربي، يا ابنتي العزيزة. لدي ما اقوله لك».

غريزيا بحثت سيرينا عن خوان بنظرها لتحثه على المجيء لمساعدتها. وبهزة رأسه فهمت انه لا مجال لها ان تتهرب من دونا ايزابيلا.

قالت المرأة العجوز بلهجة جافة وهي ترى خوان يشير بحركة في اتجاهها:

«ليس انت من اريد. اني ارغب في التحدث الى زوجتك على حدة».

«كما تشائين، يا عمتي. لكن عليك ان تحذري. صحيح انها تبدو مسالمة وغير مؤذية، كجميع الفتيات الانكليزيات، الا انها متى احرجت تخرج مخالبها».

«انا سعيدة ان اسمع منك هذا الكلام!»

ازاحت دونا ايزابيلا طرف المقعد وربتت على الفراش مشيرة الى سيرينا ان تأتي لتجلس قربها. فلبت المرأة طلبها وبدأت دونا ايزابيلا الكلام موجهة اياه الى دون خوان:

«من الاسهل التقاط الفئران بالمطرقة بدل تقديم الحلوى! ويجب على زوجتك ان تجمع في داخلها قوة هرقل وحكمة سليمان كي تستطيع مقاومة تجربة الزواج مع رجل من طرازك».

رفع خوان حاجبيه السوداوين وقال:

«وانت ستعلمينها كيف عليها ان تتحلى بهذه الصفات، اليس كذلك، يا عمتي؟»

«ليست بحاجة الى نصائح على ما اظن. انها امرأة بمعنى الكلمة. اريد فقط ان احذرها ضد جاذبيتك الشيطانية، هذا السحر الذي تستعمله منذ طفولتك».

ضحك خوان وقبل الانسحاب. وظلت سيرينا تنظر اليه وهو يبتعد وتفكر بكلمات العمة التي لا شك تخفي محبة كبيرة له. وما ان انغلق الباب وراءه حتى انحنت دونا ايزابيلا وهمست قائلة:

«يا له من رجل ساحر! انه يخيف اكثر من جده عندما كان في سنه. هناك شيء يجب ان ابوح لك به، يا عزيزتي. . . لقد امسكت الجواد بلجامه، على ما اعتقد لكن لا تحاولي ارجوك ان تروضيه».

ظلت سيرينا صامتة مكتفة اليدين فوق ركبتيها. كانت تحدق بطرف حذاء دونا ايزابيلا التي تابعت تقول:

«أعرف بماذا تشعرين. عندما كنت في سن المراهقة، وقعت في غرام الكونت حتى الجنون. . . ان سحر آل فالديفيا شيء اسطوري في هذه المنطقة. ومنذ تأسيس مجموعتنا الصغيرة، تحطمت قلوب نساء عديدات لأنهن لم يفهمن ان ردة فعل آل فالديفيا قاسية اذا ما استعملن معهم القوة. انهم بحاجة ان نترك لهم الحبل في العنق. ولاحظي انه لم يفسح لي مجال تجربة نظرياتي. لأنه لم تسنح لي الفرصة لذلك. عندما اختار والدي شريك حياتي، لم يهتم بمعرفة اذا كنت اميل اليه او احبه. وهذا مازال يحدث الآن، فآل فالديفيا اصطدموا بالآباء الذين يبحثون لبناتهم عن ازواج لا يطابقون معرفتهن أو ميولهن، انما يختارون لهن رجالا يطابقون امنياتهم هم».

اطلقت زفرة ثم اضافت:

«اني احسدك، يا عزيزتي. لكنك ما تزالين شابة وسليمة النية وبريئة. لذلك انا ارتجف مكانك. . . دون خوان سبب لك أذى كبيرا والشكليات التي تمت اليوم لا يمكنها ان تصلح هذا الاذى كليا. غير اني ارجو منك ان تتحلي بالصبر معه والا تعيري انتباها لملاحظاته اللاذعة وان تردي عليها بالابتسام وان تتحملي من دون خوان طبعه الغاضب والعاصف، ذلك لأني اعدك بأنك ستجدين مكافأة على اعمالك في النهاية. وهو ان حبا عميقا ودائما سيلد بينكما. . .»

ابتسمت سيرينا ابتسامة صفراء بينما كانت دونا ايزابيلا تنهض واقفة. لو كانت تعرف الحقيقة! ان خوان يتمتع بحرية كبيرة وليست سيرينا على استعداد ان تعارض هذه الحرية وتحرمه اياها. بامكانه ان يذهب الى الجحيم!

٨ - الراقصة المثيرة

في المساء غيرت سيرينا ثيابها للاشتراك في حفلة شواء ستتم في الهواء الطلق وسط حديقة القصر. فاختارت لهذه المناسبة تنورة مقلمة ذات الوان زاهية وقميصا فلاحيا باكمام قصيرة واسعة، مثلما ترتدي نساء وصديقات الرعاة. ثم سرحت شعرها الطويل جيدا ورفعته بشكل ذنب الخيل فانسدل حتى خصرها. ولأسباب غامضة تحلت بالشجاعة. فالاحتفال الذي سيتم الليلة لن يخجلها مثل حفل الصباح، لأن الرعاة اقل تصنعا وعجرفة من اصدقاء دون البيرتو، وبالتالي سيستقبلونها بترحاب ودفء. صحيح ان هذا الزواج السريع فاجأهم، هم ايضا، لكنهم لن يتظاهروا بالحكم عليها مسبقا او ادانتها. لقد تعودوا ان يفيدوا من كل ما تقدمه الحياة. وهذه

فلسفتهم وبالتالي سيتفهمونها جيدا وسيحترمون نزواتها ونظرتها الى العالم.

اما ويندي التي ارهقها اللعب والدلال فنامت بعمق عندما جاءت سيرينا لتنحني فوق سريرها. وكانت تسمع الموسيقى الصاخبة والضحكات المبتهجة الآتية من الحديقة. وبخفة هبطت المرأة بخطوات نشيطة ومرحة السلالم المؤدية الى قاعة الاستقبال الصغيرة، حيث كان من عادات دون البيرتو ان يجلس لتناول المقبلات قبل موعد العشاء. لكن ابتسامتها اختفت عندما رأت دون خوان ممددا على احد المقاعد. كان وحده ويلهو بكأس بين يديه. وما ان دخلت القاعة حتى نهض لتوه. لاحظ نظرتها المتسائلة فأعلن ببساطة قبل ان يدعها تطرح السؤال المتوقع، قائلا:

«جدي، الرزين والكتوم كالعادة، قرر قضاء بضعة ايام في منزل دونا ايزابيلا. هذا لطف منه، اليس كذلك؟»

فتحت سيرينا عينين واسعتين اندهاشا وقالت:

«اتريد ان تقول اننا وحيدان هنا...»

«نعم. ليس تماما، فهناك الخدم الذي يسكنون الجناح القريب من هنا. من يمنعني ان آخذك بالقوة، هذه الليلة... لا احد بامكانه ان يسمع صراخك وعويلك...»

تلعثمت حين قالت:

«لا تكن تافها!»

«انت مخطئة يا عزيزتي. كيف بامكانك ان تكوني حازمة ومعك الجواب القاطع؟ فالليلة مازالت في بدايتها. اني اجهل تماما ماذا سيكون تصرفي في الساعات المقبلة».

امسك ذراعها فتقلصت. ثم وضع يده على معصمها وادارها نحوه وذكرها قائلا:

«لقد تزوجنا منذ قليل يا حبيبتي. لذلك من المفروض ان نقدم لبعضنا العطف والمحبة. والعروس خاصة عليها ان تبدو متألقة. اما بالنسبة الي، فسأحاول جهدي ان ابدو مغرما وسأهمس في اذنك بعض الكلمات الناعمة وسأضمك الى صدري وفي أوج السهرة، سأقطف من خدك قبلة... لنبدأ اذن بالابتسام. ومن جهة ثانية لا اريد ان ارى في عينيك ملامح الكآبة والقلق بعد الآن. فهمت؟»

صمت قليلا ثم اضاف قائلا:

«افهم تخوفك. لكن لن يكون الامر غريبا عليك، كما في المرة الاولى...»

من لهجته فهمت سيرينا انه يتألم في صميم كبريائه فاستعادت نشاطها، وتوجهت معه الى باب المدخل حيث ينتظر الرعاة قدومهما. وما ان اجتازا العتبة حتى سمعا اصواتهم الحماسية وصراخ صديقاتهم أو زوجاتهم: «اهلا! اهلا! انت رائعة يا سينيورا!»

تمكنت سيرينا من الابتسام بثقة كبيرة ادهشت خوان كليا.

المشهد الذي واجهها في غياب الشمس كان ذا جمال عنيف وبدائي. وضعت المشاعل حول دائرة واسعة، وسطها الحركة مستمرة. فالتحضير لهذه السهرة بدأ منذ ساعات عديدة. صغار الرعاة كانوا ينحنون فوق موقد كبير حيث يوقد الحطب، يتصببون عرقا ويحركون اشياشا كبيرة حيث تشوى ببطء شرائح كاملة من لحم البقر والعجل. والنساء اللواتي لمعت عيونهن اثارة وحماسا جلبن الصحون الى الطاولات العريضة.

انه اسراف وافراط بالطعام. «الباباس» وهي عجة البطاطا المحشوة باللحم المفروم والبصل او الجبنة. «البانشو فيللا» اي حبوب الذرة والفاصولياء المطبوخة مع البيض المقلي والمتبلة بالثوم... ولفتت نظر سيرينا اهرامات الفاكهة والخضار المنوعة.

القناديل المعلقة تحت الاشجار تضيء اوراق الشجر السميكة واللماعة والملونة بجميع الوان قوس القزح. مجموعة من الشباب خرجت من الظل. على اكتافهم القيثارات وتحت اصابعهم المرنة تنبعث موسيقى ناعمة وايقاعية. الابتسامة عريضة على شفاههم وتظهر اسنانهم البيضاء الناصعة.

كانوا يشكلون حرس الشرف حول دون خوان وزوجته. فترك موظفو المزرعة اعمالهم واسرعوا نحو العروسين للتهنئة وتقديم الاحترام والولاء. ففي هذا المساء، يجري الاحتفال بعيد امير الرعاة، دون خوان وبالتالي كأنهم يحتفلون بعيد كل واحد منهم. في الوقت نفسه كانوا يشعرون انه يختلف عن بقية الرجال. فلم يحلموا من قبل ان تكون رفيقتهم امرأة شقراء ذات عينين تائهتين زائغتين جميلة كما هي، بعيدة، متحفظة.

وبعد هذا الاستقبال الحار والرفيع بالالوان بدأ المرح والمرج والمزاحمة. جلسوا على البنوك بينما جلس خوان وسيرينا على طرف الطاولة. وللحال شرعوا بتقطيع شرائح اللحوم وفاحت رائحة ذكية، رائحة اللحم المشوي وعبق الجو بها. كان الجميع جائعين ولم يخشوا ان يستعملوا اصابعهم ليتقاسموا قطع الشواء. وفي هذا الجو الغريب كانت الريح تهب بهدوء وتمشط جبال الانديس القريبة التي بدت غير مرئية تماما في الظلام. ففي وضح النهار يتهيأ للمرء انه قادر

ان يلمسها باصبعه.

كانت المأدبة تدور بفرح وضحك. الابتهاج والحركة والاندفاع حررت سيرينا التي كانت تقضم باسنانها هذه اللحوم اللذيذة بنهم شبيه بنهم الرعاة.

كانت تتلقى اسئلة من حين الى آخر:

«ما رأيك؟ هل الطعام يعجبك؟»

«نعم، جدا. انه رائع للغاية».

كانوا ينادونها بمختلف الصفات: المرأة الانكليزيـة، زوجة السينيور الرائعة الجمال. الشقراء الغجرية...

وبعد انتهاء العشاء ازيحت الطاولات والبنوك ليحل مكانها العازفون والموسيقيون، الذين راحوا يعزفون موسيقى حماسية وتحمس الرعاة فدعوا رفيقاتهم للرقص.

انحنى خوان فوق سيرينا وقال لها:

«الكويكا رقصة الحب الشيلية»

ابتعدت عنه لكنه امسك بخصرها وشرح لها قائلا:

«منذ البدء على المرأة ان تجذب انتباه الرجل، وخلال الرقصة، تستميل حبه، وتدخل الى قلبه».

لم تعيره سيرينا غير انتباه سطحي، اذ كانت تنظر الى الراقصين. الرجل والمرأة يقفان وجها لوجه ويحاولان تحويم مناديل واسعة حول رأسيهما. ثم تقوم المرأة باستدارات عديدة آخذة وقفات مغرية، بينما الرجل يضرب بقدميه على ايقاع الموسيقى التي تزداد حماسا بشكل تدريجي، ويضرب بيديه المهاميز والحضور يطلق صياح الحماس والتشجيع ثم ينضم الى الحلبة التي تتحول الى هياج ودوامة لا نظير

لها.

فجأة ظهرت فتاة سمراء، ساحرة الجمال، من وراء الاشجار. ومن كيانها ينبثق السحر والاغراء. كانت سيرينا تحدق بها وتتبع تحركها. وهمس احدهم قربها:

«كابريللا، المجنونة. انها تبحث عن رجلها...»

كانت الفتاة تتفحص الوجوه، ثم ما ان رأت خوان حتى اقتربت منه. كانت تحدق فيه بالحاح، غير مكترثة بتعليقات الرعاة. همسات وفضائح كانت تسمع هنا وهناك.

وفي اناقة رشيقة توقفت امام خوان وانتصبت على رؤوس اصابعها ودعته في وقاحة ان يتأمل صدرها المثير وخصرها الرفيع وقوامها الرشيق. رمقت سيرينا بنظرة اشمئزاز كأنها تريد ان تقول لها ان نحافتك وشقرة بشرتك لا يمكنهما ان يثيرا عشيقي. ومن دون اي انزعاج وضعت موضع الخصم والمنافس. راحت سيرينا ترتعش وتقول لنفسها ان هذه الفتاة لم تبد غاضبة على خوان لأنه تركها. غير انها تستغل المناسبة لتتحداه. وكانت كل الحظوظ بجانبها.

وبحركة كريمة دفع خوان بسلة فاكهة نحو الفتاة الجميلة. ومن دون ان تحيد نظرها عنه، تناولت تفاحة وعضت عليها. ثم مدت ذقنها وشددت على التفاحة بين اسنانها الناصعة ودعت خوان ان يتقاسمها معها مثل حواء في جنة عدن. انحنى خوان للحال ليلبي دعوتها، لكن في سرعة البرق، حولت رأسها عنه وراحت تضحك، ثم خطت خطوة الى الوراء داعية اياه ان يتبعها.

توقف الراقصون في امكنتهم وراحوا يراقبون المشهد. ظلت الفتاة تحدق بخوان وهي ترجع الى الوراء بحركة راقصة. كان وجه

سيرينا من رخام. وخوان الذي سحرته الفتاة، اقترب منها بخطى عريضة وراح الحضور يصفق بايقاع والموسيقيون يعزفون بحماس على قيثاراتهم. وراح خوان يضرب بقدميه ويصفع المهماز بيديه وكابريللا تدور ببطء حوله، وتنورتها الطويلة الواسعة تتطاير حولها فتظهرة قوامها الجذاب. واشتدت الموسيقى وراحت تسرع كما راحت خطوات كابريللا تسرع ايضا وتتظاهر امام خوان باستعراض متوحش ومثير. كانت تقترب منه بدون ان تلمسه. وتساءلت سيرينا: «كيف سينتهي الامر؟». الفتاة كانت منجذبة بعنف نحو خوان وهذا لا شك فيه وجاءت في يوم عرسه لتحقق هذه الرقصة المليئة شغفا كأنها تهب نفسها له. ولم تمتنع سيرينا من الشعور نحوها بالشفقة، لأنها مرفوضة تلقائيا لدى عائلة فالديفيا النبيلة. لا شك ان كابيريللا مولعة بغرام خوان، لكن هذا الاخير لا يشاطرها هذا الحب. لا بد انه يستحسن جمالها ومرحها واثارتها. لكنه لا شك يعتبر هذه العلاقة عابرة لا اكثر ولا اقل...

وكما يدل اسمه «دون خوان» فهو رجل ارستقراطي فاسد، يتنقل بسخرية ولا مبالاة من مغامرة الى اخرى. فكرت سيرينا بكل هذا وامتلأ قلبها مرارة كبرى.

حول خوان نظره عن الراقصة لينظر نحو زوجته. كانت نظرته تلمع بالسخرية، وفهمت سيرينا انه لا شك عرف ما يدور في ذهنها. وبغضب منه ومن نفسها، انتظرت حتى ادار لها ظهره، ونهضت في هذا الظلام ولم يلاحظ احد رحيلها، لكنها دخلت المنزل راكضة وصعدت السلالم اربعة اربعة مسرعة نحو غرفتها. وبعدما صفقت الباب بشدة، ظلت مستندة اليه برهة حتى تستعيد تنفسها. اقفلت

الباب بالمفتاح وبدأت تخلع ملابسها. كانت على وشك الارهاق. هذا النهار الطويل كان مليئا وخصبا بالانفعالات!

غير ان الليل ما زال في بدايته بالنسبة الى الرعاة.

وبتردد فتحت سيرينا درج خزانتها لتأخذ قميص نومها. لشدة دهشتها كان فارغا. فتحت الدرج الثاني، ثم الثالث، ولم تجد اثرا للألبسة الداخلية. وحتى داخل الخزانة لم تجد اي لباس. فاحتلها احساس بالتوتر والخوف. اقتربت من السرير ورأت الفراش عاريا من الشراشف والمخدات والاغطية. سمعت سيرينا خطوات على السلالم. فتناولت الغطاء الوحيد الذي يغلف السرير ووضعته حول جسمها. توقفت الخطوات امام الباب، فتسمرت مذعورة. تحركت قبضة الباب فظلت سيرينا صامتة. وسمع صوت خوان الجاف قائلا:

«دعيني ادخل، يا زوجتي والا خلعت الباب...»

وبعد قليل خلع بالفعل ودخل ولاحظ وجود الادراج كلها مفتوحة فقال في سخرية وهو يغلق ابواب الخزانة:

«هل كنت تتوقعين البقاء في هذه الغرفة بعد زواجنا؟ وكارمين المرأة العاطفية لا تتحمل ان نبقى منفصلين مدة طويلة! فقد حملت امتعتك الى غرفتنا التي سنتقاسمها معا من الآن فصاعدا».

شعرت سيرينا بارتخاء في قدميها وكادت تقع لكنها تمكنت من القول:

«لكن ماذا يعني هذا الكلام؟ الم نتفق على ان...»

قاطعها خوان ضاحكا:

«اطمئني! انها غرفتان متصلتان بباب مشترك. سننام اذن كل

واحد على حدة. لكن كي لا نوقظ شكوك الخدم علينا ان ندعهم يروننا معا... وارجو الا يكون هذا الطلب مهمة شاقة لفتاة انكليزية طاهرة؟»

«اني اقبل هذه الشروط. هل بامكانك ان تريني هذه الغرفة؟ فانا اشعر بالبرد...»

حملها بين ذراعيه وتوجه نحو الممر، لم تجرؤ على الحراك بينما كان يهبط بها السلالم. كانت يداه تحرقان جسمها. فتقلصت بتوتر، ابتسم خوان بوقاحة هادئة وهمس وهو يقف امام باب الغرف:

«قولي يا عزيزتي، لماذا هربت من الحفلة؟ الا تريدين مقارنة نفسك بمنافستك، ام انك غيورة؟»

رددت بارتباك:

«غيورة؟ عليك...»

كان منظرها لا يصدق. فغابت الابتسامة عن وجه خوان ومن دون ان يلفظ كلمة دخل الى الغرفة ووضع سيرينا على قدميها. وبينما كانت تتخلص من ذراعيه، هبط الغطاء الناعم الذي يحيط بها مظهرا كتفيها، فرفعته بحركة عصبية واشتبك نظرها بنظر خوان الذي ظل صامتا. وخافت سيرينا ان يكون خوان يحضر خطة جهنمية للانتقام منها.

فقال اخيرا باستغراب:

«لا، طبعا! كيف يمكن لقطعة جليد مثلك ان تغار؟ انه شعور تجهلينه... ماذا اذن وراء تصرفاتك الباردة؟ بماذا تشعرين، لو كان لديك شعور من المهم ان اعرف!»

وفي عنف جذبها خوان بين ذراعيه ولم تكن قادرة على التخلص من

قبضته خوفا ان ينزلق الغطاء عن جسمها. ثم راح يلامسها بيديه الفضوليتين... لا تنقصه الخبرة ولا حتى كيفية التصرف. وسيرينا التي كانت تتصنع اللامبالاة كانت تشتعل داخليا بالرغم منها.

وراح يهمس في اذنيها قائلا:

«اهدأي، يا عزيزتي».

وبعدما لامس خدها الساخن، راح يعانقها بشغف وهي كانت تشعر باحاسيس عنيفة تحرق داخلها فارتعبت. ولما رفع رأسه، كان الامتنان مرتسما على وجهه مما جعل سيرينا تصفعه بكل قواها. وللحال امسك خوان بمعصمها وضمها اليه وانتزع يدها المتمسكة بالغطاء الحريري. وارتسم على وجه سيرينا وشاح اليم عتم قلبها. فلم تكن تريد الاستسلام له وراحت تتخبط بكل طاقتها للتخلص منه. فسقط الغطاء حتى قدميها.

قهقه خوان وشعرت سيرينا بالاهانة والكراهية العمياء له حتى انها تمنت لو بامكانها ان تقتله في هذه اللحظة بالذات!

قال ساخرا:

«بدأ الجليد بالذوبان. كان يكفي شرارة... وكيف احداثها!»

ظلت صامتة لا تتحرك كأنها تمثال من مرمر. فقد عراها، روحا وجسدا. ثم تمكنت من القول والدموع مخنوقة في حنجرتها:

«انت انسان فظ ومتوحش! اني اكرهك».

وتشنجت مستعدة لتحمل قهقهته الساخرة، لكنه اكتفى بمراقبتها بامعان ثم قال:

«في الاقل تمكنت من خلق عواطف شغوفة لديك... واني على يقين اني احدثت فيك انفعالا كبيرا، اكبر بكثير مما احدثه والد

وبندي!»

ضربة جديدة اقوى من اي شيء. وهذه الذكرى اللا ارادية لوالدها فتتت قلبها. فحاولت كبت بكائها لكن الدموع راحت تتلألأ من جفنيها.

فقال غير مصدق:

«اتبكين لذكرى الرجل الذي تركك؟ هل ما تزالين تحبينه؟»

اجابت بجفاف:

«لم يتركني. بل مات. لكني ما ازال احبه. وسأظل احبه...»

ران الصمت بضع ثوان. ثم انحنى خوان والتقط الغطاء الحريري ولفه حول سيرينا كأنه يقمط طفلا صغيرا. ثم حملها بين ذراعيه حتى السرير. رفعت نحوه عينين قلقتين فأسرع يقول لها:

«بامكانك ان تنامي بهدوء، يا عزيزتي. لست انوي محاربة شبح او خيال. لكن لا تنسي شيئا مهما: اننا ننتمي الى عالم الاحياء، لذلك يجب ان نفكر بهم وليس بالاموات... عزيزتي، ارتاحي بسلام، لان الرجل لا يموت اذا ما نسيناه».

٩ - فستان وقح

وخلال الاسابيع التالية، عرفت سيرينا معنى السلام والهدوء في حياة متميزة وثرية، حياة لم تكن تجرؤ على الحلم بها او تخيلها. ولما عاد دون البيرتو من اقامته القصيرة في منزل دونا ايزابيللا، اعلمه دون خوان بقراره، وهو رفضه ادارة المزرعة، الهدف الذي كان يرغب العجوز في تحقيقه، ولو بالحيلة والخداع. واعلمه بأنه يفضل ان يتقاسم حياة الرعاة المتعبة، كما في الماضي. ان يفيق قبل الفجر، ويمتطي جواده طيلة النهار ويجتاز من دون توقف المسافات الشاسعة، ويجمع الماشية لوشمها...

ومن وقت الى آخر كان يضطر الى مرافقة الماشية الى مرفأ بعيد، لذلك كان يتغيب اياما عديدة. ولدى عودته كانت ملامح وجهه

مرهقة ومليئة بالغبار وكان جسمه النحيل يبدو اطول من العادة عندما يظهر قرب المنزل.

كان دون البيرتو يتحمل هذا الوضع بصعوبة. لكنه اخيرا لم يعد يحتمل. وفي احد الايام، بينما كان حفيده عائدا من رحلة طويلة، استدعاه لينذره ببلاغ نهائي لا عودة عنه.

لما وصل خوان كان العجوز يأخذ حمام شمس قرب بركة السباحة ويستمتع برؤية سيرينا وويندي تلعبان في الماء. كانت الطفلة بامان بين ذراعي شقيقتها تطلق صياح الفرح واحيانا صراخ الخوف.

كان الطقس حارا وناعما وكانت سيرينا ترتدي ملابس سباحة بيضاء وبدا جسمها اسمر من شدة تعرضه للشمس. كما ان صحتها اخذت بالتحسن وزاد وزنها. راحت تقهقه بصوت مرتفع عندما تمسكت ويندي بشعرها محاولة التسلق على كتفيها خشية الوقوع في الماء. وخوان الذي كان يقترب بخطى بطيئة وثقيلة لم يقدر ان يزيح نظره عن هذ المشهد، بل كان يبدو مسحورا ومندهشا مثل واحة بقلب الصحراء. صرخ دون البيرتو لدى رؤيته قائلا:

«خوان، يا بني، اهلا وسهلا بك في المزرعة! سيرينا، انظري، هذا خوان. تعالي واظهري له فرحك بعودته!»

وكي تخفي اضطرابها، انهمكت المرأة لحظة بويندي المتعلقة بعنقها. كانت تعرف ماذا ينتظر دون البيرتو منها. اقتربت من الرجل المرهق حاملة شقيقتها بين ذراعيها... هذا الرجل الذي وجدت في غيابه الراحة والهدوء والطمأنينة داخل المزرعة.

وبصورة غير منتظرة راح قلبها يخفق بسرعة. ثم رفعت رأسها نحو خوان من دون خوف. ودون البيرتو كان يراقب تصرفاتها بفرح.

طبع خوان على خدها قبلة سريعة فخاب امل سيرينا. ثم ركز اهتمامه على الطفلة وقال:

«وكيف حال جميلتي الصغيرة اليوم؟»

اخذ الطفلة بين ذراعيه واضاف:

«احب ان الهو معك، يا حبيبتي. لكني مليء بالغبار ورائحة العرق. اذهبي الى امك حتى آخذ حماما واعود اليك».

«هل تحب موافاتنا الى هنا بعد ذلك؟»

لم تصدق سيرينا ما سمعته. فهي نفسها التي طرحت عليه هذا السؤال.

«اذا كان هذا ما تريدينه. اتفقنا...»

تدخل دون البيرتو بقوة وقال:

«ولماذا تظن انها لا ترغب بذلك. انت حقا زوج وشبح في آن واحد. حتى الآن سيرينا تتكيف مع هذا الوضع لكن، من جهتي انا، قررت ان اضع حدا لتغيبك المتواصل. واني انوي ان اضعك على رأس المزرعة، منذ الآن! سبعون سنة تكفي. ساستقيل من دون تأخر. لكن لنناقش هذه الامور بعد العشاء. اذهب وخذ حمامك ثم انضم الى سيرينا. لا شك ان لديكما اشياء كثيرة للقول. لكن لا تنسى ما قلته، لم يعد هناك وقت للتردد والمراوغة...»

هزّ خوان رأسه وتوجه نحو المنزل. وبانتظار عودته فكرت سيرينا ان خوان سيحقق هدفه الذي من اجله قبل زواجا سيحرمه الحرية لبضعة سنوات.

وبينما كانت منغمسة في افكارها، لم تلاحظ سيرينا ان الخادمة، بطلب من دون البيرتو، اخذت الطفلة الى داخل المنزل. ولما ظهر

خوان على الشرفة، ابتعد الرجل العجوز بدوره تاركا الزوجين وحدهما.

قال خوان:

«طلبت مني ان ارافقك، اليس كذلك؟»

فوجئت سيرينا به وانتفضت، فقال:

«هل كنت جادة بدعوتك، ام انك تصنعت ذلك من اجل ارضاء رغبات جدي؟»

حبست سيرينا انفاسها وهي تحدق فيه، بقامته الممشوقة وعضلاته المتناسقة كلها. وفهمت للحال سبب جاذبيته واشتبكت نظراتها، فقال بسخرية:

«اذن؟

هل ترافقيني. اشعر بحاجة كبيرة للسباحة».

فجأة شعرت برغبة قوية للمكوث بجانبه. مد لها يده ليساعدها على النهوض فراحت تركض حول البركة وهي تعي تماما ان ملابس السباحة لا تخفي فتنتها. ثم قفزت في الماء الشفاف واحتلت كيانها قشعريرة ونوع من الاثارة البهيجة عندما لمحت خوان في فوران من الزبد. ظلّ عدة لحظات قربها ثم تجاوزها وهو يسبح بقوة وبسرعة غريبة.

ولما وصلت سيرينا الى طرف البركة كان خوان يعوم بلا مبالاة وعيناه تحدقان بالسماء وهو ممدد على هذا السائل الاخضر كانه فوق سرير مائي. وكان يبدو متلذذا فرحا.

قال في صوت منخفض:

«انني احلم بهذه اللحظة منذ ايام وايام».

ثم التفت نحوها وتابع يقول:

«خلال هذه الرحلة الاخيرة، لم الق الا المشاكل، فضلا عن حرارة الطقس التي وتّرت الحيوانات والرجال. . .»

قالت له بجفاف:

«لكني لا اشك في انك نلت بعض التعويضات المرحة لدى وصولك الى المدينة».

«نعم بالفعل، بعض التعويضات!»

فجأة اختفى تحت سطح الماء. ولما وصل قرب سيرينا، شدّها بكاحليها وجذبها الى اسفل البركة. اعتقدت ان رئتيها ستنفجران. تركها اخيرا، وصعدت الى الهواء الطلق وفتحت فمها تلهث. ولما شاهدت رأس خوان الاسمر يطل فوق الماء، قررت الانتقام في الحال، فتسلقت كتفيه وشدت بكل ثقلها حتى انزلته تحت الماء. وفي الحال اصبح ذلك لعبة مرحة. وخلال ساعة تقريبا كانا يتداعبان في الماء كالاولاد، بكل بساطة. وبصورة غير متنظرة التقت طباعهما المختلفة في نوع من الاتفاق وراحا يتمتعان بهذا التناسق العابر.

وبعد ذلك تمددا على الكراسي الطويلة واحضرت لهما كارمين المشروبات المنعشة. فاحتسيا شرابها وهما يجففان جسميهما تحت اشعة الشمس.

وتنهدت سيرينا قائلة:

«اني احب فصل الصيف هنا. انه جاف من دون ان يكون خانقا. لا اصدق اننا في شهر كانون الثاني/ يناير... في لندن لا شك ان الثلج منهمر الآن. وعلى الارصفة المنزلقة يتدافع الناس ليستقلوا الباصات متأففين من رداءة الطقس».

بكلامها لفتت اهتمام خوان الذي راح يراقبها في دقة ويسألها:

«حدثيني عنك. ماذا كنت تفعلين قبل ان تلتقي جدي؟ وكيف تم هذا اللقاء؟»

تجهّم وجه سيرينا فجأة. ولأول مرة تشعر بارتياح وارتخاء لوجوده. لكنه باسئلته هذه، اعادها الى مدار الخطر.

تلعثمت وهي ترد على سؤاله قائلة:

«كنت اعمل في مكتب واعيش مع ويندي في غرفة صغيرة لا تبعد عن مركز عملي».

«وماذا كنت تفعلين بالطفلة عندما تكونين في العمل؟»

«كنت اضعها كل صباح في دار الحضانة وآخذها في المساء لدى عودتي».

انها تعرف تماما عقلية الناس هنا في اميركا الجنوبية وكانت متأكدة من ردة فعل خوان المصدومة لما قالته. الا يعتبرون هنا في شيلي - ان وجود الام الدائم هو شيء ضروري للولد؟

اضافت لتدافع عن نفسها:

«لم يكن امامي اي اختيار. في انكلترا انها عادة النساء ان يضعن اولادهن في دور الحضانة. في كل حال فالعاملون هناك يهتمون بالاولاد كل الاهتمام وكل العناية».

لمعت عينا خوان السوداوين وقال:

«هكذا اذن، انت تعتقدين انه بامكانهم التعويض عن حب الام؟»

قالت سيرينا وقد سئمت من هذا الحديث:

«كلا، ابدا! ولهذا السبب انا هنا! كنت اشغل وقتي وعقلي كله

من اجل صالح ويندي وهذا الوضع كان مزعجاً، لأني لم اكن اربح المال الكافي. ولما ازدادت المصاريف لدار الحضانة، اضطررت ان اخرجها من هناك. ثم ارغمتني صاحبة الغرفة حيث كنا نسكن على الرحيل لأن صراخ ويندي يزعج الجيران. كنت امر بحالة نفسية سيئة عندما شاهدت الاعلان الذي وضعه جدك فلم اتردد في اللجوء اليه...»

توقفت عن الكلام لحظة وشعرت بانزعاج يحتلها. وخوان تقلص بدوره وقال في صوت فاتر:

«تابعي كلامك. كيف كتب الاعلان؟ هل مازلت تتذكرين الكلمات التي استعملها؟»

كادت سيرينا ان تهرب بسرعة لكن نظرته القاتمة اقنعتها وراحت تتلو عليه بشكل آلي قائلة:

«وظيفة لفتاة شابة انكليزية شقراء، المركز يضع حياتها كلها في ملجأ من الحاجة...»

توقفت لحظة واختنق صوتها ثم اكملت:

«يجب ان تكون كتومة، طيعة ووديعة...»

ابتسم خوان بسخرية فتابعت تقول:

«وتقبل طلبات من يتحملن اعباء الاسرة».

تنهد قائلا:

«يا الهي! ولم يحذرك احد من مخاطر هذا الاعلان؟ رميت بنفسك هكذا!»

اجابت في رصانة:

«لم يعرف احد بخطتي. لم يكن لدي اصدقاء بمعنى الكلمة.

وكنت اعاني وضعا ميؤوسا منه وكنت مستعدة ان افعل اي شيء لأبقى مع ويندي».

نهض خوان فجأة وراح يحدق بها ويقول:

«مهما اصر جدي، فلقد تزوجت الشيطان!»

فكرت سيرينا بمرارة: «كيف تنكر ذلك؟» فتعبير وجهه الشيطاني شلها. لكن لسبب غامض، حاولت متابعة الحديث وقالت بحزم:

«كلا. كلا. لكن جدك سخر مني. . . صحيح انه لم يكذب عليّ، غير انه اعطاني صورة عنك لا تطابق الحقيقة. فحسب قوله لي انك رجل خجول ومعقد. . . وتنقصك الثقة بالذات. وحسب قوله اتفق معك على ان يجد لك زوجة. لو كنت اعرف اني خدعت لما كنت وافقت على اقتراحه!»

وفي صوت مخنوق راح خوان يشتم جده ولم تر الرأفة والحنان في عينيه الباردتين عندما حدقتا بها وقال:

«اذن جئت الى شيلي باعتقادك انك ستلتقين يمامة! غير انك التقيت بنسر تشبث بك بمخالبه. . . لقد خدعنا جدي معا. لكننا سنثأر منه. . . في الوقت المناسب. بما انك على استعداد لتقبل خطتي، سأسهر على ان تكوني قد اخذت تعويضك كما يجب.»

ابتعد عنها لكنها احتجت وهي تقول:

«سبق واكرمني دون البيرتو كثيرا. ولا ارغب بشيء آخر، و. . .»

قاطعها قائلا:

«لا تعتقدي ان ملابس انيقة ومنزلا تسكنينه يكفيان لأن تكوني امرأة ثرية! حتى ولو افحمك بالحلى والمجوهرات، فهذا بنظري كأنك لا تملكين شيئا!»

بعد قليل من ذهابه، توجهت سيرينا الى غرفتها. كانت الشمس ماتزال ساطعة، لكنها كانت ترتعش بردا. لقد عاملها خوان باحتقار حتى اصبحت باردة كالجليد. هذا التصرف من قبله ليس جديداً، فمنذ لقائهما الاول وهو لا يكف عن مشاكستها. لكن هذه المرة، بعد هدنة بعد الظهر في بركة السباحة، دهشت سيرينا. لذلك فالصدمة كانت قوية.

وبينما كانت تخلع بزة السباحة، سمعت وقع خطى خلف الباب. ليس امام خوان سوى باب غير مقفل ليجتازه لكنه لم يغامر في الدخول الى غرفتها منذ اليوم الاول لزواجهما. فكرت بوالدي خوان اللذين لا شك تقاسما هذه الغرفة بالذات. فهما ايضا اضطرا للزواج، لكن حسب اقوال دون البيرتو احبا بعضهما البعض بشغف كبير. اغمضت عينيها وهي تفكر ان هذا الجو عليه ان يعبق من جديد بهذا الحب. لكن من دون جدوى. . .

وضعت مئزرا وتمددت على السرير. مازال امامها ساعتان قبل موعد العشاء. كانت تشعر بتعب لكن الاعصاب والتوتر والاضطراب ستمنعها من النوم.

وراحت تسرح عينيها في المكان: الابيض كان اللون الاساسي ثم الذهبي. السقف ابيض والستائر الحريرية يدخلها الابيض وكذلك البساط المزهر. الجدران عارية الا من لوحة صغيرة ومرآة كبيرة.

همست سيرينا متعبة: «منظر عاطفي. . .»

ثقل جفناها فانغلقتا وغطت في نوم عميق لم تفق منه الا بعد ساعة وشعرت بالراحة ونهضت تأخذ دوشا. واحست بنشاط وانتعاش في كل انحاء كيانها. واختارت فستانا احمر فاقع اللون وضيقا ارتدته

وشعرت بتحد سيساعدها على السيطرة على خجلها. ثم وضعت حمرة فاقعة وعلقت في اذنيها زوجي اقراط عريضين ومصنوعين من الذهب وهزت رأسها لتعتاد ثقلهما.

ثم وقفت امام المرآة تنظر الى نفسها عندما دخل خوان الغرفة. البساط السميك خنق صوت خطواته، لكنها شعرت فجأة بوجوده والتفت نحوه. محى ابتسامته في الحال. كادت ان تعاتبه لدخوله المفاجىء وانتهاك حريتها واستقلالها، لكنها عدلت عن ذلك فجأة.

كانت نظرات خوان تتفحصها بدقة: فستانها احمر ضيق يظهر جسمها بتفصيل كبير. لكنها تسمرت مكانها عندما صرخ بصوت مشمئز:

«اخلعي هذا الفستان في الحال!»

رفعت رأسها غرورا وسألت:

«لماذا؟ انه يليق بي تماما!»

قال في سخرية:

«كما يليق جلد الذئب بالحمل! فقط النساء القدريات يرتدين مثل هذه الملابس، يا عزيزتي! وانت لست منهن... انت تجهلين كليا معنى الاغراء!»

وبحركة عنيفة انتزع القرطين ورماهما بعيدا، ثم امسكها بكتفها وبطرف يده مسح الحمرة عن شفتيها. واهملها تاركا اثارا حمراء في منتصف خدها وامرها قائلا:

«والآن، اغسلي وجهك. ولا تنسي ان تغيري ملابسك، انت امرأة غير محتشمة!»

واجهته سيرينا بغضب وقالت:

«لا يحق لك ان تتكلم عن الحشمة! رقصت كابرييلا امامك بوقاحة وانت شجعتها واقنعت الحضور انك كنت تود الرواج منها...»

قاطعها بجفاف وغضب:

«لا تدخلي كابرييلا بالموضوع!»

«لكن، لديك ضمير...»

«بالطبع، عندي ضمير».

وضع يده في جيب سترته الداخلية واخرج منها علبة صغيرة مخملية واضاف قائلا:

«ارفض استغلال الرعاة. ومثلهم انت تستحقين الاعتبار. هذا كان ملك والدتي. جئت به اليك تعويضا لخدماتك. اصر ان اراك تضعينها، هذا المساء بالذات.»

فتح العلبة واخرج منها عقدا من حجارة الياقوت الازرق. لكن الاهانة قطبت وجه سيرينا، ورفضت الاستسلام قائلة:

«كلا، شكرا. هذا لا يليق بفستاني».

وفي اللحظة التالية كانت تتأرجح بدوامة غريبة. ثم شعرت بسحابة فستانها تنسحب. امسك خوان بالقماش الناعم ومزقه على طوله وقال بلهجة قاتمة:

«المشكلة لم تعد مطروحة بعد الآن. وكي تمنعي ذلك من الحدوث في المستقبل ولتحافظي على ملابسك، اعرفي ان من عادتي ان يطيعني الآخرون من دون نقاش».

وبهدوء نظر الى ساعة يده ثم اضاف:

«يبقى امامك عشر دقائق قبل العشاء. وهذا يكفي لتغيير ملابسك».

وادي الجنة

تم العشاء في جو متوتر، وسيرينا الشاحبة، ذات النظرة الحزينة حافظت على الصمت امام نظرات دون البيرتو القلقة. وخوان من جهته، لا يتزحزح ويناقش من دون توقف بامور شتى محاولا استيعاب انتباه جده.

سيرينا مشدودة الحنجرة، كانت تشعر بصعوبة كبيرة في ابتلاع الطعام. فقد اهانها خوان مرة اخرى بقسوته الاعتيادية. ظل معها في غرفتها بينما تبحث في خزانتها عن فستان ترتديه. وفي سرعة اختارت فستانا بلون قمحي ليظهر عقد الياقوت الازرق.

وبعد ان نظر دون البيرتو مليا الى سيرينا استدار نحو خوان وقطب حاجبيه وقال:

«اريدك، قبل ان تتولى ادارة المزرعة، ان تقوم برحلة صغيرة، رحلة بمثابة شهر العسل...»

لم يتحمس خوان ولا سيرينا. لكن قبل ان يشعر بخيبة امل اضاف قائلا:

«بامكانكما ان تمضيا اسبوعين على الساحل، وسيكون ذلك رائعا... من ناحيتي، انوي زيارة بعض الاصدقاء في اسبانيا، لكن بعد عودتكما. سيرينا، اعتقد بانك ستحبين منطقة «فينا ديل مار». هناك الشاطىء من اروع ما يكون والفنادق فاخرة والكازينو كبير يقصده السياح من ارجاء المعمورة».

اعتقدت سيرينا ان خوان سيرفض هذا الاقتراح، لذلك لم تر مناسبا ان ترد. لكن، لشدة دهشتها قبل خوان قائلا:

«هذا اقتراح جيد وجذاب: فضلا عن ان سيرينا ستكسب من المكوث قرب شاطىء البحر كل صحة وعافية».

«رحلة شهر العسل تتم للعريس فقط والعروس وستبقى ويندي هنا.»

كانت لهجته قاطعة وكادت سيرينا ان تحتج لكن خوان سبقها قائلا:

«ربما انت على حق. اتفقنا سنذهب غدا صباحا الى فينا ديل مار».

شعر دون البيرتو بارتياح وغادر المائدة بعد انتهاء الطعام تاركا الزوجين لوحدهما. نوافذ غرفة الطعام كانت مفتوحة، غير ان الهواء العليل الذي يدخل الى المنزل غير كاف لانعاش الجو الرطب والخانق. فاقترح خوان في لا مبالاة وضجر:

«ما رأيك لو نخرج للنزهة؟»

وفي بادىء الامر كانت سيرينا تريد الرفض. لكنها اخذت حذرها في الحال. من الافضل الخروج على البقاء مسجونة في الداخل، واشارت له بحركة ايجابية من رأسها.

«سأجلب لك شيئا تلبسينه في حال شعرت بالبرد».

نهض خوان سعيدا بالتخلص من هذا الجو الثقيل. وبعد لحظات، ظهر من جديد حاملا شالا حريريا مطرزا، وقال وهو يقترب منها:

«هذا يكفي. انه من الحرير وخفيف على الجسم».

تقلصت عندما وضعه على كتفيها. فلاحظ خوان ردة فعلها وقال في سخرية:

«اطمئني، ليست انوي تمزيقه وهذا لا يعني اني على استعداد لأمزق كل ما ترتديه...»

«لماذا تصر على ان تكون زوجتك في مظهر محتشم الى حد كهذا؟ انت لست متحفظ وقور في ما يتعلق بلباسك الخاص!»

راح يميزها مطولا وقال:

«هناك مثل يقول: «المرأة العفيفة هي امرأة مهجورة» لكن هذا المثل لا يمكن ان نطبقه عليك، لان ويندي هي الدليل الواضح».

شعرت بان الدموع تحرق عينيها فازاحت رأسها بسرعة، واجتازت ممر المدخل. فكرة واحدة تعزيها، فوجود شقيقتها سلاح مخيف ومروع. ولو كانت تعرف استعمال هذا السلاح بمهارة كافية، سيشعر خوان بان غروره على المحك ويتوصل الى عدم تحمل وجود الطفلة ولن يتأخر قبل ان يطردهما معا الى انكلترا.

عبرا الشرفة قبل الدخول الى الحديقة المضيئة بنور القمر. كأن الدنيا نهار. وراحا يتنزهان بين ازهار الاوكاليبتوس التي تحيط بالمنزل. ومن بعيد امكن رؤية البيوت الصغيرة المبنية على جانبي الطريق والتي تؤوي عمال المزرعة واسرهم.

راح خوان يشرح لسيرينا كيف تتم عملية التوزيع في المزرعة ويقول في لا مبالاة اعتيادية:

«عندما احتل المغامرون الاسبان هذه الارض الجديدة، ومنحهم ملك اسبانيا مكافأة بمنحهم هذه الاراضي. وطلب منهم الحفاظ على القبائل الجديدة مكان سكان الهنود. واخذ كل فرد حقه من الاراضي باعتبار استحقاقاته ومركزه الاجتماعي. هكذا عادت المزارع الصغيرة الى الجنود والكبيرة الى الضباط».

ارتاح قليلا ثم تابع ونظره محدق بالافق:

«وآل فالديفيا الذين كانوا ينتمون الى العائلة الاسبانية القديمة النبيلة، حصلوا على هذه المزرعة واداروها حسب التقاليد القديمة لبلاد المنشأ. وهذا النظام مستمر حتى يومنا... الرعاة لا يعتبروننا ارباب العمل، بل اعضاء نافذين في عائلة ينتمون اليها، لانهم يعملون هنا، ابا عن جد. ونشأت بيننا علاقات حميمة وهم يكنون لنا كل احترام».

تدخلت سيرينا بلهجة قوية قائلة:

«كما يحترم البطاركة في العهود القديمة. انت فرح لان عمالك لا يموتون جوعا. لكن عليك الاعتراف بان احدا منهم لا يمكنه ارغامك ان تعطيه اكثر من حقوقه! اني مقتنعة بانه اذا اراد احدهم مغادرة المزرعة ليعمل في مكان آخر، فلن يتمكن من ايجاد اي عمل...»

انتفض خوان بعنفوان وقال:

«عمالنا احرار ان يذهبوا متى رغبوا!»

«مثلي؟ انت تعرف تماما ان لا احد من المالكين في المنطقة يقبل توظيفهم. ربما يجدون في المدينة عملا، لكنهم سيجدون صعوبة في الادخار. ان آل فالديفيا كانوا وما زالوا الطغاة المستبدين... وهذا مستمر حتى الان. انتم لا تعتبرون الناس كائنات من لحم ودم، بل دمى تحركونها كما تشاؤون بطرف الخيط! انتم لا تعتبرون ما يريدونه ويرغبونه. فقط تهمكم رغباتكم وحدها... لنأخذ مثلا، اسبوعي العطلة على شاطىء البحر، هل اخذتم برأيي؟ ابدا. لكني لا ارغب بالسفر وخاصة معك!»

وبينما كانت تستشيط غضبا، ظل خوان متعجرفا كأي ارستقراطي نبيل واعتلت وجهه ابتسامة عابرة وقال:

«الا تعجبك فكرة قضاء بضعة ايام معي؟ انت بحاجة ماسة الى عطلة، يا عزيزتي. اعصابك متوترة وفي فينا ديل مار ستجدين الهدوء والاسترخاء... لكن، بجانب ذلك...»

فجأة اصبح صوته قاسيا واضاف:

«يجب ان نحرص على ان يظل جدي في مزاج حسن. النجاح اصبح من الآن فصاعدا في قبضة يدي... واذا اضطررنا من اجل ان نربح الجولة، ان نذهب معا في رحلة شهر عسل، فسنفعل ذلك! واذا كانت اقامتك معي في فينا ديل مار تقلقك، سأبدل لك الهموم من الان. لن تخشي شيئا مني، اني اعدك بذلك. ساحاول جهدي ان اجعل اقامتك هناك ممتعة للغاية وستتذكرين ذلك وساشكرك على الخدمات التي تؤدينها لي»

وفي صباح اليوم التالي اقلعت بهما الطائرة وكان يقودها خوان بنفسه. وكالعصفور صعدت الطائرة في السماء الزرقاء الصافية بعدما استدارت فوق المزرعة وتوجهت نحو الغرب. وكان خوان يبدو مرتاحا وهو يقود الطائرة. وقربه كانت سيرينا تشعر ببعض القلق عندما بدأت الطائرة بالصعود عاليا. ولم تعد ترى الارض كليا.

ومهما كانت تفكر بهذا الرجل الغريب، فهي تثق به ثقة عمياء.

كان يرتدي سروالا من الكتان وقميصا ذا قبة مدورة. وفي وجهه ملامح بشوشة ويبدو انه عازم على الافادة من هذه الاستراحة غير المنتظرة قدر الامكان ان رافقته سيرينا ام لا.

رمقها بنظرة مواربة، فكانت مستقيمة بجلستها، متقلصة، مكتفة اليدين. تعبر عن توترها الداخلي الحذر. انحنى خوان فوقها وقال:

«ما رأيك ببعض البهلوانيات؟»

لم تقدر سيرينا ان تمتنع عن الارتجاف. فهي تشعر انه على استعداد للقيام ببعض النزوات الشيطانية، حسب عادته.

تلعثمت وهي تقول:

«لا شكرا».

فجأة ارخى الرافعة وسحب المقبض، فشبت الطائرة، ومقدمتها موجهة نحو السماء وراحت تصعد عموديا. تسمرت سيرينا في مكانها وانقطع نفسها وشعرت بدمها ينبض في اذنيها.

لم تكن قادرة على ان تنبس بصوت. ادخل خوان المقبض فاستعادت الطائرة مركزها الطبيعي. اطلقت سيرينا زفرة ارتياح، لكن لوقت قصير، لانها بعد لحظة قصيرة، كانت تعيش كابوسا

حقيقيا. راحت الطائرة تهبط مدومة وتشك بسرعة جهنمية نحو الارض. وبدت الكارثة حتمية. اغمضت سيرينا عينيها وضغطت على فكيها، بانتظار ان تسمع الصدمة. وراحت تصلي في داخلها الى ان شعرت ان الطائرة تنتصب من جديد بصورة تدريجية.

فتحت عينيها وكان خوان يبتسم بهدوء. فصرخت به غاضبة:

«انت انسان مجنون حقا! كدت تقتلنا!»

قهقه ضاحكا وقال:

«نعم، لكن بطريقة جميلة، يا عزيزتي ما اجمل ان يختفي الانسان عن الوجود في شعلة من النار كأنه يلعب بالموت».

حاولت جهدها استرجاع عقلها وقالت:

«اقتل نفسك اذا كان هذا ما ترغبه، لكن افعل ذلك لوحدك! شخصيا افضل حياة تعيسة على موت رائع».

تمت بقية الرحلة في هدوء تام، فقد ظلا صامتين حتى بدأت الطائرة تخفف من سرعتها استعدادا للهبوط. وانبسطت تحتهم مدينة «فالباريزو».

قال خوان وهو يشير بذقنه نحو النافذة:

«برأيك لماذا تدعى هذه المدينة «وادي الجنة؟»

انحنت سيرينا الى الامام ولاحظت ان هذا التكتل الواسع له شكل المنجل والخط المنحرف يحيط المرفأ حيث رأت عددا لا يحصى من السفن. بالكاد شاهدت الرافعات تفرغ السفن وتملأها. اذ انحرف خوان فوق المطار بسرعة وهبطت الطائرة بسلام.

استقلا سيارة تاكسي اقلعت مسرعة على الطرقات الواسعة لمدينة فالباريزو. فلم تتمكن سيرينا من اخذ وقتها في النظر مليا الى هذه

المدينة الجميلة وهضباتها الصخرية المنفتحة على خليج واسع.

اخبرها خوان بالتفصيل ليعوض عليها ما فات وقال:

«في المدينة مستويان. الاحياء السكنية تقع في المدينة العليا ومنطقة الاعمال تقع في المدينة السفلى، قرب المرفأ. والقطارات السلكية تصل المدينتين».

وبعد ربع ساعة وصلت بهما السيارة الى فينا ديل مار. وللحال انسحرت سيرينا بطابعها الغريب. الشاطىء الرملي الناعم يمتد على مد النظر. صفوف المظلات ذات الالوان الغامقة تنتشر قرب الحجرات الخاصة بالمستحمين. ومن جهة البحر المساكن الواسعة الفاخرة التي تعود الى بداية القرن، بجانبها الفيللات الحديثة. وعربات الخيل تنتقل ذهابا وايابا بخطى الخيول الهادئة. اشجار النخيل والصنوبر تحد الطرقات العريضة المبلطة. وفي كل مكان الازهار على انواعها بوفرة مدهشة.

استغربت سيرينا وقالت:

«يا لوفرة الازهار! وهذه العطور...»

قال خوان مبتسما:

«كل مواطن يملك المساحة اللازمة، عليه بطريقة او باخرى، ان يزرع فيها ازهارا! وهناك قانون بلدي بهذا الصدد».

مدّ ذراعه وفتح باب سيارة التاكسي التي توقفت امام فندق كبير فخم.

وكأنها في حلم تبعته الى مدخل الفندق. ودخلا في المصعد الى الطابق الاخير. فقادهما الموظف الى الجناح المخصص لهما، خلال مدة اقامتها. الديكور كان فاخرا وانيقا. النوافذ الكبيرة تطل على

المحيط الهادىء، الازرق في الامواج المزبدة.

قال لها خوان وهو يقترب منها وهي تتأمل المنظر مسحورة:

«هل يعجبك المنظر؟»

«انه رائع يقطع الانفاس بجماله!»

التفتت نحوه متألقة. وظهرت في عينيها الزرقاوين زرقة المحيط الغامقة.

بدا خوان مندهشا: هذه الصرخة النابعة من اعماق القلب اسكتته. كان ينتظر ان يراها كالعادة متحفظة وعدائية، ولم يعد يعرف كيف ستكون ردة فعله. حدق بها مدة طويلة فاحمرت وجنتا سيرينا واختفت الابتسامة البراقة وتيقظت. خالجها شعور انبأها الا تثق بخوان وبنزواته وانفعالاته العنيفة وغير المتوقعة.

ابتعدت بعصبية عندما اعلن بصوت لا مبال:

«اقترح عليك شيئا. انسي اني رجل. ومن جهتي ساعتبرك نوعا من رفيقة. سئمت حرب الجنس... لنضع اسلحتنا ولنعتبر هذه العطلة هدنة. ما رأيك؟»

كيف بامكانها ان تنسى مثل هذا الشيء! انه يطلب منها المستحيل! غير انها هزت رأسها ايجابا. فاجابها بابتسامة عريضة قائلا:

«عظيم! ما رأيك لو نغتسل ونوضب اشياءنا؟ وبعدها نذهب للنزهة في المدينة.»

الحمام يقع بين الغرفتين. دعا خوان زوجته ان تدخله اولا وبعد دقائق من خروجها من الحمام، راحت ترتدي فستانا من القطن الابيض وتسمع الماء ينهمر في الداخل وصوت خوان يرنم اغنية

معروفة.

سرحت سيرينا شعرها ورفعته كذنب الحصان. وفجأة شعرت بيديها ترتجفان. ماذا يجري في داخلها؟ اثارة؟ خوف؟ لكنها اقتنعت اخيرا ان مجرد قضاء ١٥ يوما في هذا المكان الاسطوري ايقظت في داخلها انفعالات غريبة من نوعها. لكن عليها ان تظل حذرة، فلا يجب ان تنسى ذلك.

طرق خوان الباب ثم دخل الى غرفة سيرينا. كان يرتدي سروالا اسود وقميصا سوداء، كان وسيما كشيطان فر من الجحيم!

«هل انت مستعدة؟»

مد لها يده وراح يفصلها من رأسها حتى اخمص قدميها. وكان الاكتفاء باديا على وجهه. اعطته سيرينا يدها ولاول مرة منذ شهور عدة تشعر بالسعادة.

ولمدة ساعة تقريبا راحا يتنزهان امام واجهة البحر كان الجو مرحا. السباحون يتداعبون مع الامواج. اكلا بعض فاكهة البحر الطازجة ليخففا من حدة الجوع. ثم جلسا على السد ينظران حالمين الى البواخر الراسية. ومن وقت الى آخر كانا يزغردان ضاحكين عندما يشاهدان النوارس وهي تتسلى بطريقة بهلوانية باحثة عن بقايا الطعام. ثم تأبطا ذراع بعضهما البعض وعادا الى الفندق، امام نظرات المتسكعين الذين اعتبروهما عاشقين.

كان الطقس شديد الحرارة، ولما دخلت سيرينا الصالون الصغير في جناحها، بدأ العرق يتصبب من كل انحاء جسمها. كانت متعبة. وفي الوقت نفسه فرحة. وبينما كان خوان يحضر الشراب المنعش، شعرت برغبة في ان تشكره.

قالت وهي تجلس باسترخاء على المقعد المريح:

«كان نهارا رائعا! افضل ان تكون رفيقي بدلا من ان تكون زوجي».

من دون انفعال او تأثر قدم خوان لها كأسا قبل ان يفرغ كأسه.

وبينما كانت تراقب جوزة العنق عنده تصعد وتنزل في رقبته السمراء، تساءلت سيرينا اذا كان خوان قد غير رأيه فقط من اجل تهدئة تنبهها وتيقظها ويوهمها بشعور الامان الخادع. انه رجل مزاج ناري ولا شك انه لم ير كابرييلا منذ وقت طويل...

ابتسم لها بصراحة وقال:

«الصداقة، يا عزيزتي هي مثل الثمرة. انها بحاجة للنضج. لكن الصداقة التي تجمعنا ما زالت خضراء عجرة وبحاجة الى وقت طويل لتنضج».

اعادت له سيرينا الابتسام بابتسامة صريحة وامسكت اليد التي مدها اليها. فقال وهو يلاحظ السماء التي عمها الظلام بسرعة:

«حان الوقت كي تهيئي نفسك للعشاء. من الافضل ان نتناول الطعام باكرا، يا صديقتي. وهكذا ستتمكن من الافادة قدر الامكان بمتع «وادي الجنة».

١١ - آخر الرقص عناق

لم تعرف سيرينا ما الذي كانت تأكله من اطعمة وضعت على المائدة. هي وخوان كانا منغمسين في الحديث لدرجة انهما لم يعيا نظرات المعجبين من جميع انحاء المطعم.

سألها خوان:

«حدثيني عن طفولتك. هل كنت سعيدة؟»

لمعان ناعم انار عينيها الشفافتين وراحت تقص عليه بعضا من سيرة حياتها:

«والداي كانا زوجين رائعين ومثاليين... دلعاني كثيرا. ولم يكن لديهما غيري. الا ان...»

توقفت فجأة واحمرت وجنتاها. قطب خوان حاجبيه وسألها

مختارا:

«نعم؟ الا ان...»

تلعثمت وقالت:

«الا انهما... توفيا».

«هل ماتا معا مثل والدي؟»

«ليس تماما... لكني خسرتهما في مدة ستة اشهر».

«ربما ما كان يجب عليّ ان اطرح عليك هذه الاسئلة. انه موضوع مؤلم... احيانا افكر انك لم تكوني باستمرار الفتاة الباردة، المتحفظة. آسف اني لم التق بك قبل المحن والمتاعب التي اثرت بك كثيرا...»

صمت قليلا ثم اضاف:

«ما كانت آراء والدتك تجاه والد ويندي فالامهات احيانا متحيزات. ووالدتك الم تر فيه ذلك الرجل المتطفل، الدخيل؟»

احمر وجه سيرينا وقالت:

«كانت تحبه حتى العبادة».

استغرب قائلا:

«آه! وحسب رأيك، ماذا كانت وجهة نظرها لو عرفتني؟»

هذا السؤال طرحته على نفسها مرارا من دون ان تجد الجواب المناسب. لا شك انه كان اوحى اليها بالفضول والخشية في آن واحد ولكانت اعطت حكما قاسيا على عائلة فالديفيا المتعجرفة، ذات التصرف المستبد. لكنها كانت لا شك اعترفت بأنهما يشكلان اسرة غير اعتيادية.

كان خوان فارغ الصبر امام سكوت سيرينا التي تنفست بعمق

قبل ان تعلن قائلة:

«كانت والدتي امرأة شديدة الحساسية كمعظم الامهات، وخاصة امام الجمال الشكلي والجاذبية وسحر الحديث وحتى الى الاطراء لكن...»

«نعم، تابعي كلامك.»

قالت بعصبية:

«لا شك انها لم تكن ستعجب بتصرفك تجاه كابرييللا. بالاضافة الى انه لا يمكنها اعتبار السعادة كنتيجة للغنى والمال».

«اذن لكانت فضلت رجلا فقيرا، مثل والد ويندي. اهذا ما تريدين قوله؟»

وفي لحظة البرق استعادت وجه والدها في مخيلتها وبحنان اجابت:

«مرة، سمعت والدتي تقول انه يملك الثروة الحقيقية الوحيدة وهي ثروة القلب.»

نهض خوان فجأة على وشك الاستسلام للغضب العنيف.

ثم قال:

«انا لا استغرب ان تكوني خائبة الامل! واعتقد ان لوالدتك قسطا كبيرا من المسؤولية في هذه القضية. واعتقد انها اساءت الحكم. الاشخاص العاطفيون يخدعون بسهولة. فحساسيتهم المرهفة تجعلهم عميان امام الحقيقة!»

لم يتسن لسيرينا الوقت للاحتجاج. فامسك خوان بذراعها ودعاها لاجتياز غرفة الطعام والممر الى الخارج. فسألته ونفسها متقطع:

«الى اين تصطحبني؟»

اشار الى سيارة تاكسي فتوقفت قرب الرصيف، فدفعها الى المقعد الخلفي ودخل قربها وقال للسائق:

«الى الكازينو، من فضلك».

ثم التفت الى سيرينا واضاف بسخرية:

«رمز الثروات المزيفة...»

وبرغم ان الوقت كان باكرا، كان الكازينو يعجّ بالناس من جميع الجنسيات. النساء الانيقات كن يضعن المجوهرات والحلى. وحول الطاولات تزاحم اللاعبون. في السقف تدلت ثريات الكريستال التي تنير الغرفة بنور براق. بالنسبة الى سيرينا كان هذا الجو خرافيا وساحرا. اخذ خوان مكانه امام الطاولة قرب اللاعبين، بينما سيرينا اقتربت من الروليت ووجدت مكانا فارغا جلست فيه. فارتعشت عندما انحنى فوقها خوان قائلا:

«اختاري رقما وضعي احجارك او بعضا منها عليه، كما تشائين».

وضعت كل حجارتها على رقم ٩. فأديرت الاقراص، ثم توقفت امام رقم ٩. وهتف مدير الطاولة:

«احمر، تسعة!»

صرخت سيرينا مستغربة:

«ربحت، يا خوان. ربحت.»

«تابعي اللعب».

«لا افضل ان اتوقف الآن. هل ربحت ثروة كبيرة؟»

«ما يعادل الفي جنيه استرليني».

«يا الهي. كل هذا! لم يسبق ان امتلكت اكثر من مئة جنيه».

«صحيح؟ مادام الامر هكذا، لا اريد ان يتجهم وجهك المتألق. دعينا نحتفل بالامر».

صرف خوان الحجارة واستعاد المال بقيمته واقترب من سيرينا قائلا:

«سأحتفظ بالمال معي».

في هذه اللحظة بالذات عرفت سيرينا معنى هذه الثروة الصغيرة. بامكانها ان تستعيد حريتها العزيزة على قلبها. بامكانها ان تشتري بطاقة سفر الى انكلترا وبطاقة لويندي. وان تستأجر لها غرفة وتعيش. كيما تجد لها وظيفة محترمة. قالت لاهثة:

«كلا. افضل ان تعطيني المال. حقيبتي الصغيرة بامكانها ان تسع كل هذه الاموال».

اعطاها المال قائلا:

«كما تريدين».

ولما خرجا من الكازينو، استقلا سيارة تاكسي وتوجها الى ناد ليلي حيث اختار خوان انهاء السهرة. لم يكن المكان بعيدا ولم يستغرق الا دقائق قليلة...

كان شبه ظلام ناعم يعم المكان والديكور يذكر بحجرة صياد. الشباك الواسعة معلقة على الجدران والسقف وبعض الاصداف البحرية. وحول حلبة الرقص حيث يعزف الموسيقيون الالحان الخلابة وضعت الطاولات والكراسي من القش.

جلست سيرينا وراحت تنظر الى الازواج الذين يرقصون على نغم الموسيقى بينما راح خوان يطلب الشراب. بعد قليل جاء الخادم يحمل صينية عليها المشروب وقطع الثلج وبعض المقبلات.

قال خوان ساخرا:

«يبدو انك تفكرين افكارا غامضة، يا عزيزتي. الا تعدين خطة جهنمية للتخلص مني؟»

فوجئت وراحت ترتجف وتقول:

«لا، ابدا».

بطريقة ما كان خوان يقرأ ما يدور في خلدها. عليها اذن ان تضلله والا تبخرت آمالها سدى. قررت ان تغير الخطة فربما نجحت؟

فاشتبك نظرها بنظره الحاد وهمست قائلة:

«هل تدعوني الى الرقص؟»

بريق التقاء قصير ظهر في العينين السوداوين

فأجاب خوان بطريقته الرجولية:

«طبعا. بكل سرور!»

وبينما كانت بين ذراعيه، ادركت انه لم يسبق لها ان وجدت في حلبة الرقص برفقة رجل في مقامه.

كان خوان يضمها اليه بقوة فاحمرت وجنتا سيرينا وهمس في اذنيها:

«اهدأي. وعدتني ان تحاولي جهدك كي تنسي زوجك الاول، هل مازلت تتذكرين؟»

استرخت وتذكرت ان عليها ان تكون محبة ومتساهلة راضية اذا ما ارادت الوصول الى تحقيق هدفها. بعدئذ وجدت متعة في الرقص مع الآخرين برفقة خوان الراقص البارع. واخيرا عندما اعادها الى الطاولة كان وجهه يشع سعادة.

اخذ يدها وقال:

«لأول مرة، هذا المساء، ارى فيك امرأة جميلة، وليس زوجة ارغمت على الزواج منها. مازال وجهك يحتفظ بطفولته برغم المحن التي اعترضت حياتك... والآن، افهم سبب تصرف جدي تجاهك. يريد ان يحميك. عيناك الكبيرتان البريئتان تعكسان براءة لا شك فيها. لكن حواء الطاهرة والساذجة، في جنة عدن، توصلت الى اغراء آدم الجبار، برغم كونه الاقوى».

احتجت سيرينا قائلة:

«لا انوي بتاتا تقليد حواء!»

شعرت بالاحمرار يعلو وجهها. اليس هدفها الوحيد ان تنسيه هذه الثروة التي تملأ حقيبة يدها... هذا المبلغ الذي يمكنها بواسطته ان تتدبر امرها؟

قال خوان بصوت هادىء:

«انا اصدقك، يا عزيزتي».

امضيا بقية السهرة في الرقص والكلام والرقص من جديد. وبعد مضي وقت عبر خوان عن لطفه الزائد. ولما قررا العودة الى الفندق بدأت سيرينا تخشى على مقدرتها في مراقبة خطتها. كما ان خوان بحاجة الى جهد كبير ليفي بوعده ومعاملتها كصديقة فحسب. لذلك كانت قلقة للغاية.

سيارة التاكسي التي اعادتهما الى الفندق كانت تجتاز الطرقات المهجورة بسرعة. وسيرينا الجالسة بارتخاء في المقعد الخلفي تركت رأسها يرتاح على كتف خوان الذي كان يتمسك بخصرها. لم يتبادلا الكلام طيلة الطريق. وبالرغم من المظاهر كان الجو متوترا. كل واحد منهما يشعر ان هذه الانفعالات والعواطف التي يحاولان

كبتها ستنتهي بالتحرر. وماذا ستكون العواقب؟

وما ان دخلا الى جناحها حتى همست سيرينا وقد احتلها الخوف:

«الساعة متأخرة. ارجو ان تعذرني، سأذهب الى فراشي في الحال».

«لا، ليس في الحال. سنأخذ كأسا اخيرة».

«لا اريد ان اشرب شيئا بعد الآن. دعني، ارجوك».

جذبها نحوه بعنف وقال:

«لا يمكنك ان تنسحبي الى غرفتك الآن! لنبقى معا، حبيبتي. ستكون هذه الليلة ليلة شهر العسل. وستكون ليلة رائعة لم يفرضها علينا احد ولا حتى جدي...»

وبينما ارادت ان تحتج، راح يعانقها بعنف. لكن سيرينا اشمأزت منه وراحت تتخبط كحيوان جريح، لكن جهودها باءت بالفشل.

«تعالي، يا حبيبتي، استسلمي لي وسأنتزع الشبح الذي يهدد ذاكرتك. سأبعد ذكرى هذا الرجل الذي لم يعرف ان يفهمك حبا. لا تخافي من الشر، يا زوجتي الجميلة!»

توصلت في الاخير الى دفعه عنها وخطت بضعة خطوات الى الوراء ترتجف في كل انحاء جسمها. وراحت تقول في سخرية مرة:

«الم تنسى وعدك يا سينيور؟»

«شيء ما لم اعد اسيطر عليه. بعدما قدمت لي سحرك واغريتني، في المكان الراقص، بدأت تلعبين العذراء المهانة... الم تتعلمي من مغامراتك السابقة؟ عليك ان تعرفي ان الانسان لا يبدأ بعمل ما اذا كان لا يريد الوصول الى نهايته!»

«لم ارتكب اي خطيئة يا سينيور. لكن تعلمت درسا كبيرا. اذا

صدف واحببت انسانا من جديد يجب عليّ قبل كل شيء ان اعرف الثمن الذي سأدفعه».

حدّق بها لحظة وقال:

«كنت مجنونا لأني نسيت انك، في كل الظروف، ستظلين محافظة على موقف ثابت».

١٢ - الهرب نحو العودة

في صباح اليوم التالي، تناولا فطور الصباح معا. وشعرت سيرينا بارتياح لأن خوان لم ينوه بالحوار الحاد الذي جرى بينهما امس. غير انه كان متحفظا ومختصرا. وما ان انهيا الطعام، حتى قال خوان بلهجة باردة:

«انا خارج. وسأعود في المساء. وانني اكيد بأنك ستملأين وقتك لهوا واستراحة، اليس كذلك؟»

هزت رأسها. فتوجه نحو الباب. وفجأة شعرت بالخجل. الم تشجعه على المغامرة؟ غير ان هدفها مازال هو نفسه وهو ان تعود الى انكلترا.

ارتدت سيرينا ملابسها بسرعة. ثم توجهت الى مكتب الاستقبال

وطلبت من الموظف هناك عنوان وكالة سفريات واسرعت الى العنوان. يبدو ان خوان نسي كليا المبلغ الذي بحوزتها. ربما لم يدرك انها بهذا المبلغ يمكن ان تتخلص من سلطته.

بقي حاجز اساسي وهو وجود ويندي في المزرعة. لكنها فضلت عدم التفكير بهذا الامر ووضعته جانبا، لأنها تريد التأكيد بأنها تملك المال الكافي ثمن بطاقتي طائرة باتجاه انكلترا.

خرجت من وكالة السفريات مبتهجة الوجه وتحمل البطاقتين. وبقي معها حسب تعليمات الموظف ما يعادل ١٥٠٠ جنيه استرليني.

ثم راحت تمشي في الطريق بحثا عن مكان هادىء، فذهنها متوتر وهي تريد الهدوء لتنظيم الافكار داخل رأسها. اخيرا وجدت مكانا يطل على المحيط.

راحت تستعرض موضوع ويندي ولم تجد الحل المنشود. فكرت ان تبرق لدون البيرتو وتقدم له حجة ما كي يرسل اليها ويندي الى فينا ديل مار. ماديا هذا معقول جدا، فآل فالديفيا لديهم طيارتان تحت تصرفهم.

قالت لنفسها بصوت مرتفع:

«ولنفرض اني اقنعت دون البيرتو بارسال ويندي، لكن هل سأوقظ بالوقت نفسه الشكوك عند خوان؟»

ولما حان وقت الغداء، تعبت سيرينا من التحليل وقررت العودة الى الفندق. وبينما كانت تمر قرب مكتب الاستقبال، ناداها الموظف قائلا:

«لحظة، يا سينيورا! برقية لك وللسينيور...»

لم تعير انتباها لاهمية محتوى البرقية، بل تناولتها منه بلا مبالاة. وبينما كانت في المصعد القت نظرة سريعة الى محتواها، وفكرت انها مرسلة اليهما من المزرعة.

فتحت البرقية بسرعة. وشعرت بصدمة: امنيتها العزيزة ستتحقق. اعادت قراءة بعض الجمل التي كانت تقول:

«ويندي لم تتوقف عن البكاء بغيابكما. سنرسلها اليكما. ستصل الطائرة الى فالباريز في تمام الساعة الثانية بعد الظهر».

نظرت الى ساعة يدها. الموعد يقترب. وبلا تردد أوقفت المصعد ثم هبطت فيه بعد ان كبست على زر الطابق الارضي. وخرجت الى الطريق باحثة عن سيارة تاكسي. لكن لسوء حظها كانت سيارات التاكسي كلها مليئة بالركاب.

استعادت سيرينا تعقلها وراحت تحلل الوضع. انها بحاجة الى ربع ساعة كي تصل الى المطار. لذا لديها الوقت الكافي لتحضير حقيبتها. وهكذا لن تكون بحاجة للعودة الى الفندق بعد لقاء ويندي. وحتى تصل ويندي، تستقل تاكسي الى مطار سنتياغو الدولي. وهناك تنتظر موعد طائرتها الى انكلترا...

عادت الى الفندق وفي اقل من ٢٠ دقيقة جمعت ما تحتاج اليه وحملت حقيبتها بيدها ودخلت المصعد من جديد. وبهدوء كبير اجتازت الممر وخرجت... هذه المرة الحظ كان معها. ووجدت سيارة تاكسي من دون اي انتظار.

قالت للسائق:

«الى المطار. اسرع من فضلك»

وبعد ربع ساعة وصلت الى المطار. دفعت للسائق وتوجهت الى

الشرفة المطلة على المدرج حيث بامكانها ان ترى طائرة فالديفيا. وبدأ الانتظار الذي بدا لها بلا نهاية. بعصبية، كانت تسترق النظر الى ساعة يدها بشكل متقطع.

فكرت بخوان الذي لن يعرف اين تكون. غير ان القلق بدأ يحتلها. اذ كانت تخشى ان يظهر هذا الرجل الشيطان في اي لحظة.

من بعيد هبطت طائرة فالديفيا، فاسرعت الى المدرج. نزلت بيللا من الطائرة حاملة ويندي بين ذراعيها. شكرتها سيرينا لاهتمامها بويندي فأكدت لها بيللا قائلة:

«لا شيء، سينيورا! الطفلة بكت كثيرا في غيابك ولا احد تمكن من مؤانستها حتى الكونت نفسه وهو الذي قرر نهائيا ان يرسلها اليك».

حملت سيرينا ويندي بين ذراعيها وقالت متعبة:

«حبيبتي الصغيرة المسكينة!»

فجأة لمعت عينا الطفلة المبللتان وارتسمت ابتسامة على وجهها. كأن شعاع شمس يخترق الغيوم. ضمتها سيرينا الى صدرها وراحت تداعب خصلات شعرها الشقراء ثم همست تقول:

«لن اتركك ابدا بعد الآن، اعدك بذلك. من الآن وصاعدا سنبقى معا دائما!»

لوح الطيار، بيدرو، باشارة من يده الى سيرينا، فردت عليه بالابتسام ثم لاحظت انه لم يغادر الطائرة، فسألت:

«ما هي التعليمات، يا بيللا؟»

«انا تحت تصرفك، سينيورا. اذا كنت بحاجة الي، سابقى. والا، ساعود الى المزرعة.»

«اشكرك، لكن بامكانك العودة».

غياب خوان اقلق الخادمة ظاهريا، لكنها لم تجرؤ على طرح السؤال فصعدت الى الطائرة وادار بيدرو المحرك. وبعد قليل راحت الطائرة تسرع. وانتظرت سيرينا اقلاعها قبل ان تعود الى المطار. فجأة شعرت بقدميها تخوران.

عليها ان تحمل ويندي والحقيبة وتتوجه الى محطة سيارات التاكسي.

جاء السائق ليساعدها، فتلعثمت وهي تقول:

«الى مطار سانتياغو».

وبينما كان يضع الحقيبة في الصندوق جلست سيرينا في المقعد الخلفي وضمت ويندي الى صدرها بشدة. كانت فارغة الصبر لكن السائق لم يكن مسرعا في الاقلاع. لسؤ حظها وقعت على سائق بطيء! واقلع اخيرا. استرخت سيرينا واختفت التجاعيد من جبينها. وقالت وهي تضم اختها:

«بعد قليل، يا ويندي، نصبح بعيدين عن آل فالديفيا وليس بوسع احد منهم ان يطالنا».

بعد ان غادر الساحل دخل السائق الى قلب الاراضي. شعرت سيرينا باستقرار داخلي واطلقت العنان لمخيلتها. بعد قليل ستتمتع بالحرية المنشودة... حتى ولو اضطرت للبقاء حتى نهار غد قبل ان تستقل طائرتها، لكنها ستصل انكلترا بعد اقل من ٢٤ ساعة! ومتى وصلت الى بلدها، ستعمل جاهدة لابطال زواجها، دليل عدم اتمامه. وهكذا تكون قد دمرت السلسلة وبامكانها ان تحلم كما تشاء بالرجل المثالي الذي تأمل ان تلقاه يوما من الايام...

ومرة اخرى راحت تتخيل رجل احلامها. لم تتمكن من تخيل مظهره الخارجي. فملامح وجهه غامضة كأنها غارقة في ضباب كثيف. ذا طبع قاس وارادة لا تتزعزع.

وبلحظة البرق راحت صورة خوان تتراقص امام عينيها. لكنه كان مختلفا كليا عن رجل احلامها. عند خوان السخرية والعجرفة والانانية تتغلب على مزايا القلب. ومثل آل فالديفيا، فالحنان عديم الوجود.

بعد ساعتين وجدت نفسها في بهو مطار سانتياغو. سجلت حقائبها والبطاقات بيدها، فلم يبق لها الا الانتظار. حسب تعليمات موظف مكتب الاستعلامات الرحلة المقبلة الى لندن ستعلن عما قريب.

وبما ان ويندي بدأت تشعر منذ برهة بانزعاج راح يقوى مع مرور الوقت تنبهت سيرينا في خجل ان شقيقتها جائعة. اما هي فلم تكن تشعر بالجوع بتاتا...

قالت لها وهي تلامس خصلات شعر ويندي الشقراء:

«لو تعرفين كم احسدك. بالنسبة اليك الحياة سهلة. تعالي، سآخذك الى المطعم.»

ولئلا تلفت الانتباه اختارت سيرينا مكانا في زاوية المطعم. وبعدما طلبت احضار البيض المقلي، راحت تنتظر عودة الخادم بفارغ الصبر. ومن حسن حظها كان بامكانها الاختباء وراء ستار من اشجار النخيل المزروعة في آنية فخارية. اخيرا وصل الطعام، لكن سيرينا لم تتذوقه بسبب شدة توترها. كانت يداها ترتجفان واهتمت باطعام ويندي. فوجئت سيرينا عندما اعلن المذيع داعيا ركاب لندن

للتوجه الى قاعة الاقلاع.

«يا الهي! حان الوقت للذهاب».

اخذت ويندي بين ذراعيها وخرجت بسرعة من المطعم واخذت طريق الركاب الذين شكلوا صفا طويلا. بعد ساعات وتصل الى انكلترا الهادئة التي ما كان يجب ان تغادرها.

قدمت البطاقتين للمضيفة المبتسمة وكانت على وشك اختراق الحاجز عندما شعرت بيد قوية تمسك بكتفها وسمعت صوت خوان وراءها يقول للموظفة:

«زوجتي غيّرت رأيها. لن تأخذ هذه الطائرة»..

ذعرت سيرينا وشاهدت رحيل المسافرين المفاجأة اخرستها.

فقال خوان بعد قليل في وجه متجهم:

«لم اكن اعتبر انك امرأة ذات شأن كبير، لكني لم اكن اعرف انك ستحاولين خداعي بهذه الطريقة. لقد تصرفت تصرفا شنيعا!»

التفتت سيرينا اليه وقالت:

«لماذا لا تدعني ارحل؟»

«هذا لا يغير الامر. لو لم الحق بك في الوقت المناسب، لقلبت الدنيا حتى اجدك في انكلترا نفسها!»

كانت مضطربة لدرجة انها لم تلاحظ شحوب وجهه والنار في عينيه.

. . . وعادوا الى فالباريزو. ولما وصلوا الى الفندق في فينا ديل مار كانت ويندي نائمة في احضان سيرينا. فطلب خوان من مكتب الاستقبال ان يضعوا سريرا صغيرا في غرفة سيرينا، ووضعا الطفلة فيه.

ثم امسك خوان بمعصم سيرينا بشدة مرغما اياها ان تنظر اليه. ثم قال:

«إذن! اعتقد ان عليك ان تشرحي لي سبب تصرفك القبيح هذا...»

دفعها الى الصالون واجلسها بقوة على المقعد وقال:

«تستحقين العقاب! كيف تجرأت، انت زوجتي، ان تقومي بهذا العمل؟ ماذا سأشرح لاصدقائي في المزرعة؟ هل اقول لهم انك هجرتني من السأم؟»

«لست بزوجتك!»

بحركة من رأسها ابعدت شعرها الى الوراء واضافت:

«وانا اسخر مما يفكر به اصدقاؤك، يا سينيور!»

امسكها بكتفيها ورفعها عن المقعد من جديد وقال بلهجة تهديد:

«لقد طفح الكيل، يا زوجتي الجميلة. ارى اني كنت متسامحا معك... اعطيتك الوقت كي تنسي والد ويندي، لكنك لم تقدري موقفي».

لما تركها، انتصبت واقفة وقالت وهي ترتجف كليا:

«ماذا يعني ذلك؟ أي عذاب ستكبدني؟»

«لا شيء. سنتناول العشاء هنا في الصالون، انت وانا ثم نقضي السهرة معا كي نتعرف على بعضنا البعض بالتفصيل! لذا اطلب منك ان تذهبي الى غرفتك وتغتسلي وتغيري ملابسك. بامكانك مثلا ان ترتدي الفستان القمحي وتضعي عقد الياقوت حتى اتذكر ما آخذه سبق ودفعت ثمنه!»

ادار خوان ظهره وانسحب الى غرفته. وظلت سيرينا مكانها مدة

طويلة من دون حراك. بعد الآن لا شيء يمنع زوجها من الثأر منها. قاتمة الوجه توجهت الى الحمام وراحت تحضر نفسها كما طلب منها. وبعد قليل لما وافاها الى غرفتها، لاحظت سيرينا ان مزاجه لم يتغير. وللمناسبة كان يرتدي سترة بيضاء ذات اناقة رفيعة، تظهر كتفيه العريضتين.

قال في قسوة:

«هل انت حاضرة؟»

اجابت كأنها ذاهبة الى حبل المشنقة:

«نعم».

الطعام بدا لها آليا وراحت ترغم نفسها للتحدث عن اشياء سخيفة مع خوان. وبعدما تناولا القهوة، راحت سيرينا ترتجف في كل انحاء جسمها، مثل عصفور مسجون. سألها وهو يلمس كتفها العاري:

«هل تشعرين بالبرد؟»

«كلا».

«اذن، هذا سيسهل عليّ مهمتي».

جذبها نحوه وراح يعانقها بقوة رهيبة كأنه يريد اهانتها. لم تستسلم سيرينا له. لكن خوان تصرف بحنان فجأة مما غير ردة فعلها وراحت تعانقه وتهمس الكلمات الحنونة في اذنه. نهض وحملها بين ذراعيه حتى غرفته. ثم اغلق الباب برجله ومن دون تردد وضعت يديها حول عنقه وهو راح يضمها بشغف اليه. وكما وعدها، فتح لها ابواب الجنة.

بعد ساعات، استيقظت سيرينا وبهدوء توجهت الى سريرها حيث ظلت ممددة، تحدق بسقف الغرفة حتى الفجر.

١٣ - رحلة الجد

في اليوم التالي، افاقت ويندي باكرا جدا وشعرت سيرينا بارتياح لكونها ستنصرف الى القيام بمهمات غير اعتيادية. فكان عقلها وذهنها منصبين على الطفلة، لذلك لم تفكر بشيء آخر. وبعدما غسلت شقيقتها واطعمتها، نزلت الى بهو الفندق ثم خرجت بها الى نزهة في الحديقة المحيطة بالفندق. الأزهار المرطبة بالندى تملأ المكان ويفوح اريجها حتى القلوب. لم يكن هناك وجود لأحد وراحت سيرينا تفكر بهدوء في احداث مساء امس.

لكنها كانت تشعر بانزعاج يحتلها كلما فكرت بأنها ستلتقي بعد قليل بخوان. الاكتفاء الذي ستراه على وجهه سيملأها خجلا...

قبل ان تفيق ويندي، اخذت سيرينا دوشا باردا علها تطفئ النار

المشتعلة بداخلها. وكلما فكرت بالدفء والنشاط والاضطرام التي احست بها عندما استسلمت لمداعبته الشغوفة، يراودها ندم كبير. كانت ترغب في الهرب بعيدا ورمي نفسها في المحيط لتغتسل من كل هذه الاهانات...

لكن هناك ويندي... من اجلها، على سيرينا ان تواجه الحقيقة، اين خوان في هذا الوقت. ربما كان خوان في صالون جناحها، ينتظرها كي يتناول فطور الصباح. بدأت تسمع الاصوات من مطابخ الفندق وبخطى بطيئة دخلت الى بهو الفندق وصعدت الى جناحها. وما ان كادت تدفع باب الصالون حتى انفتح الباب بعنف وظهر من ورائه خوان. بعصبية حرك يده في شعره وقال بلهجة قاطعة:

«اين كنت اذن؟»

«كنت... اخذت الطفلة في نزهة قصيرة... في حديقة الفندق».

لم تجرؤ على التحديق بوجهه لئلا يشتبك نظرها بنظره ولم تجرؤ حتى على التحديق بازرار قميصه.

«سنعود الى المزرعة، حالا بعد الفطور. من فضلك كوني جاهزة باسرع ما يمكن».

قالت وهي تدخل الصالون:

«اتفقنا».

كانت تريد التوجه الى غرفتها لولا ويندي التي راحت تزقزق كالعصفور وتضرب بيديها تطلب الذهاب عند خوان. ابتسم لها خوان واقترب منها وقال:

«صباح الخير، يا طفلتي الجميلة! يسرني ان ارى في العائلة من لا يعاملني باحتقار. الا يمكنك ان تقنعي امك ان تتصرف مثلك. . . »

لم تقدر سيرينا ان تمتنع عن الارتجاف داخليا. لقد شدد خوان على كلمة «أمك». من المستحيل ان يكون قد عرف الحقيقة!

تناولا الفطور في جو متوتر. وفي نهايته، دفع خوان صحنه جانبا وراح يشرح لسيرينا ما يتوقعه منها:

«متى نعود الى المزرعة، ستحاولين جهدك ان تخفي الكراهية العميقة التي تشعرين بها تجاهي. في المساء، تكلمت مع جدتي في اللاسلكي واكد لي سفره الى اسبانيا، كما كان هذا متوقعا حصوله، بعد عودتنا. وبعد ان يغادر المزرعة بامكانك ان تتصرفي بتحفظ وبرود، كما تشائين. . . لكن قبل ذلك عليك ان تبدي بشوشة. لقد افهمني بوضوح انه ينوي ان يراني ادير المزرعة. وحاليا، رجال القانون يضعون صيغة قانونية كي يصبح الارث رسميا. وحالما تصبح المزرعة بتصرفي، وحسب الصفقة التي عقدناها، لن يعود هناك سبب لوجودك. . . »

توقف لحظة ثم تابع يقول:

«وبطبيعة الحال، لا يمكنك ان تستعيدي حريتك في الحال. لا يجب ان نخيب ظن جدي في الايام الاخيرة من حياته ولا يجب ان ندعه يعرف اننا خدعناه.»

همست سيرينا بصوت مخنوق بعد ان سمعت ما يقوله محنية الرأس:

«هل هذا أمر، يا سينيور؟»

ثم استجمعت شجاعتها وقالت:

«لست انت من يعطيني الاوامر. . . ان تحقيق مخططتك لا يتم الا بارادتي!»

وافق خوان على ما قالته بنظرة جليدية واجاب:

«صحيح. لكن لن ترتكبي جنونا في الوقوف ضدي ومقاومتي. . . »

لم تكن سيرينا تجهل انه بامكان خوان ان يكون عدوا لا يضاهى. الم يجبرها على الركوع له جسديا؟ لكن هل بامكانه معاكسة قلبها وروحها. . .

انتهت سيرينا بالقول بمرارة:

«سأفعل ما تريده. ليس امامي اي اختيار. ما دمت حذقا اكثر مني».

«انت حقا عديمة المهارة. ان كل العاملين في الفندق عرفوا انك استلمت اخبارا مهمة وانك خرجت حاملة حقيبتك. لقد اعلموني في الحال بغيابك وكان من الصعب علي ان اعرف مكان وجودك. في كل حال، كل هذا كان بسبب خطأي. . . كان يجب ان اعرف انك ستستعملين هذا المال لتنفيذ مخططتك. لكن لم اكن اعرف انك تبحثين عن الهرب وعن تضليلي».

رفعت سيرينا عينيها ورأت الاكتفاء مرتسما على وجه خوان، لكن لم تكتشف القناع الذي لا تعبير فيه.

اعتذرت وغادرت الطاولة وكادت تدخل غرفتها عندما سمعت صوت خوان وراء ظهرها يقول:

«قولي. قبل ان تذهبي. . اليس هناك ما اجهله وتعرفينه انت وحدك؟»

التفتت سيرينا فجأة باندهاش وظهرت على وجهها ملامح قلق فاجابت:

«كلا... لماذا تسأل هذا؟»

راح خوان يفصلها بنظراته فشعرت بالذنب ولم تقدر ان تخفي اضطرابها، فاحمرت وجنتاها فقال:

«انت تحمرين... هل لأني اشك فيك خطأ ام لانك تشعرين بالخجل؟ هذا ما اتساءله...»

ثم ادار ظهره واختفى.

خلال الرحلة ظلا صامتين. ولما هبطا من الطائرة، كان دون البيرتو في المدرج يستقبلهما.

«آه سيرينا! لقد ارسلت لك ويندي مجبرا. لكن آمل الا يكون هذا سبب اختصار اقامتك؟»

«كنا قد قررنا قبل وصولها موعد عودتنا. في الواقع لسنا بحاجة الى عطلة، فالحياة هنا في المزرعة مريحة ومفرحة...»

انار وجه دون البيرتو الذي قال:

«كم انا سعيد ان اسمع ذلك منك، يا عزيزتي. لكن، هل كانت اقامتك في فينا ديل مار ممتعة؟»

التفت الى خوان الذي قال:

«صحيح ان الاقامة كانت قصيرة، لكنها كانت حقا رحلة شهر عسل موفقة».

احمرت وجنتا سيرينا، فضحك دون البيرتو وقال:

«حسنا! والآن بامكاننا ان نتكلم في أمور العمل!»

ثم وجه كلامه الى سيرينا قائلا:

«ارجوك ان تعذرينا، لكن علينا ان نختلي لبعض الوقت. كاتب العدل هنا وبانتظار تواقيعنا. لن يأخذ ذلك وقتا طويلا. لكني سأبقى مع خوان بعض الوقت. فهناك امور عديدة اريد ان اناقشها معه قبل رحيلي. لقد حددت سفري غدا، بعد «الروديو». هذه الرحلة تعز على قلبي وليس هناك مجال لتأخيرها بعد الآن!»

اكتشفت سيرينا بعد ذلك ما يعني الروديو، اذ كان الموضوع الاساسي المتداول حاليا في المزرعة. كارمين وبيلا اعلمتاها ان الروديو كناية عن مظاهرة ذات اهمية كبرى، فيها يقوم الرعاة بالتمارين الخطرة على ظهور خيل لم تدرب بعد. واكدت لها بيلا قائلة:

«يجب ان يكون المرء شجاعا وقويا وماهرا. اني احب الروديو. الناس يأكلون ويشربون ويغنون. ويعم المكان الصياح والضحك. كذلك هناك العازفون وقيثاراتهم والاكورديون و...»

تنفست الصعداء ثم اضافت:

«لكن ما احبه اكثر من اي شيء آخر. هو عندما يدخل الثور في الحلبة!»

غير ان سيرينا لم تكن تصغي الى تعليقات الخادمة الا باذنين شاردتين. كانت تفكر في المستقبل. ان غياب دون البيرتو الطويل سيكون له الاثر على حياتها. لا شك ان خوان سيعود الى تشرده الليلي. فهي تشعر بذلك في صميم قلبها وترى ان وجود كابرييلا يعمّ الجو ويحيط بالمنزل بطريقة سرية.

«لتحفظه وانا اباركها» لاحظت فجأة انها تضغط بشدة على معصميها وان فكها يتقلص. فوجئت بعنف ردة فعلها وقالت بصوت

مخنوق:

«لكن، باسم السماء، انسي هذا الرجل!»

انتفضت ويندي وراحت شفتاها ترتجفان. اسرعت سيرينا لمؤاساتها وراحت تقول لها:

«لا تبكي، يا حبيبتي. انا غاضبة حقا... لكن... لا افهم ماذا الذي ترينه في هذا الرجل، وتنظرين اليه بعينين ملتهبتين».

غصت ويندي، فراحت سيرينا تقهقه ضاحكة.

في المكتب الواقع تحت غرفة سيرينا، كان دون البيرتو رافع الرأس يسمع ضحكتها. وفي حركة انيقة، وقع على المستند امام كاتب العدل. ثم التفت الى خوان وابتسم له قائلا:

«يبدو ان زوجتك سعيدة. هذه القهقهات تؤكد قناعتي. الآن، يا بني، عليك ان تعترف انني لم اخطىء في جلب هذه الفتاة الى هنا. انهما تشكلان زوجين مناسبين...»

فضّل خوان الموافقة على كلام جده، برغم معرفته ان ضحكات سيرينا سيتبعها البكاء والنواح.

«انا اخضع لمهارتك. لا يوجد انسان غيرك قادر على اختيار الزوجة المناسبة للرجل المناسب. هذا واقع اكيد. آمل ان احقق الثقة التي وضعتها بي وان اكون وريثك الكفؤ».

«في المساء سنحتفل بسفري. واصر ان يكون هذا العشاء محفورا في ذاكرتي... هذا سيعزيني خلال غيابي».

هزّ خوان رأسه موافقا وقال:

«وطلبت من سيرينا ان ترتدي اجمل فستان لديها».

اطاعت سيرينا تعليماته حرفيا وفي المساء كانت ترتدي فستانا من

الموسلين الازرق الناعم فبدت كأنها عائمة على غيمة.

قال لها خوان:

«دعينا نتصرف بلياقة نقنع جدي بأننا اخيرا وقعنا في غرام بعضنا البعض سيذهب مرتاح البال وسعيدا. لا تستغربي اذا تصرفت معك بطريقة حميمة وعائلية... واذا رأيت ان هذا التصرف في غير مكانه، ردّدي لنفسك انها المرة الاخيرة التي سأتصرف بها هكذا. وهكذا يكون بامكانك تحملها اكثر».

وتذكرت هذا الكلام وهي تدخل الصالون حيث كان دون البيرتو يتناول المقبلات مع خوان. ولما رأى سيرينا، قام خوان بوضع كأسه جانبا وراح للقائها. قبّلها وامسكها بالخاصرة، فراحت ترتجف منفعلة وهمس في اذنها قائلا:

«انت رائعة الجمال، يا زوجتي الحبيبة».

كان يلفظ هذا الاطراء بصوت عال كي يسمع ذلك جده. ثم انحنى وعانقها ببطء وشغف. وفكرت سيرينا: «اذا كان هذا العناق مقدمة لما سيحل هذا المساء، فماذا تبقى لآخر السهرة؟»

ضمها اليه وتقدم من دون البيرتو مبتسما بفخر واعتزاز. وقف الجد بدوره وقبّل سيرينا وقال:

«الآن، يا بني، انا اسعد رجل في العالم».

ابتسمت له وردت على قبلته بقبلة وقالت:

«انت الرجل المتفهم والقادر، لم اتعرف على مثلك من قبل».

«لم تندمي لأنك تزوجت من حفيدي، اليس كذلك؟ لكن هذا السؤال في غير محله. يكفي النظر اليكما. كأنكما عاشقان فتيان!»

قاطع خوان الحديث قائلا:

«ماذا تحبين ان تشربي يا حبيبتي؟ شراب الورد مشروبك المفضل، اليس كذلك؟»

«اتذكر، يا حبيبي، آخر مرة شربنا منه؟ كنت قد ربحت مبلغا من المال في الكازينو وذهبنا بعد ذلك للرقص. كان ذلك عاطفيا... ولما عدنا الى الفندق كنت كأني اعيش حلما...»

«وتلك الليلة التي قضيناها معا لا يمكنني ان انساها اطلاقا. انها في ذاكرتي الى الابد. مثل حواء كنت ساحرة، ورائعة... وسرية».

ابتسما لبعضهما البعض ببرود بينما كان دون البيرتو يقهقه ضاحكا. اضاء وجهه ثم قال:

«الم اعلمك بذلك، يا ابنتي؟ عندما يواجه حفيدي لغزا، يريد معرفته في الحال. وهذا الحب للالغاز يعود الى طفولته النضرة ومازال محتفظا به حتى الآن. والآن لنتناول العشاء اني اشعر بسعادة كبيرة بفتح القابلية على الطعام. انوي الافادة قدر الامكان من هذه الوجبة العائلية الاخيرة».

خلال العشاء بذلت سيرينا كل جهدها ان ترد على كلمات خوان المبطنة. ولم يشك دون البيرتو بصحة هذه الكلمات. لكن شيئا فشيئا اصبح الجو متوترا واعصاب المتحاربين بدأت بالانهيار. الا ان دون البيرتو المتعب نام في مقعده. واغتنمت سيرينا نوم دون البيرتو، فراحت تعبر عن غضبها قائلة لخوان:

«لم اعد احتمل كل هذا الكذب. سأعود الى غرفتي!»

«يكون ذلك اصدق ما فعلته في هذه السهرة».

ادارت له ظهرها وكادت ان تنسحب عندما امسك بها خوان من خصرها، وكاد ان يغمس عينيه السوداوين المشرقتين في عينيها

الزرقاوين فارتعشت. فقال:

«لقد لعبت دورك باتقان. انت ماهرة عندما تريدين خداع الغير... الآن، ارجوك ان ترحلي!»

كادت ان تتعثر وهي مارة قرب دون البيرتو الذي كان يغط في نوم عميق.

بعد ساعات قليلة، اي في حوالي منتصف الليل، سمعت بوضوح اصوات خطوات على الشرفة مباشرة، تحت نافذة غرفتها. طقطقة مهاميز وصوت احذية. كان الرجل يتوجه نحو الاسطبل. انتصبت سيرينا وراحت تصغي بعد قليل سمعت اقدام جواد يخرج لتوه من اسطبله. امتطاه الرجل وولى به بعيدا.

اسندت سيرينا رأسها على الوسائد فريسة انزعاج عميق لا يفسر. غثيان له علاقة بكون خوان ربما سمع نداء وراح يلبي النداء.

١٤ - روديو

في الفجر، افاقت سيرينا على اصوات آتية من الخارج. كان الرعاة قد انهمكوا في تحضير الحلبة، الاسيجة الطويلة البيضاء المغلفة بالقش تذكر بسلة الغسيل الكبيرة. وتدريجيا بدأ الفرسان يجتمعون حول السياج. كانوا يرتدون لهذه المناسبة البانشو الملون والقبعات العريضة والسراويل الجلدية السوداء والاحذية العالية. وكانوا يمتطون افراسهم بفخر.

بعد قليل رأت سيرينا جمهور المشاهدين يزداد ليحيط الحلبة. وبرغم انهماكهم قام الرعاة بتحية المرأة الانكليزية ويندي التي تشبه والدتها بشعرها الاشقر وعينيها الزرقاوين. ومن المزارع المجاورة بدأ تهافت الفرسان الجدد الذين يشتركون بكل احتفالات الروديو في

المناطق المجاورة ويأتون من كل انحاء المنطقة. السيارات ملأت الساحة. وكان جيران دون البيرتو وعائلاتهم ومعظمهم من الملاكين الكبار، يتهافتون باعداد كبيرة لحضور الاحتفال.

غير ان خوان لم يظهر بعد. قَرُبَ موعد الاحتفال. وبدأ الاعلان بالعرض الاول، وجاء دون البيرتو ليستعلم قرب سيرينا عن تغيب حفيده، لكنها لم تقدر ان تفيده بشيء.

تلعثمت وهي تقول:

«ربما كان في الجوار... ربما يهتّم بالمبارزين؟ هناك امور كثيرة بحاجة الى تنظيم، ربما...»

قال دون البيرتو بسخرية:

«ليس من مهمة خوان ان ينظم الاحتفال!»

وبينما كانت تتظاهر باللامبالاة، كانت سيرينا تفتش الجمهور بنظرها علها تلمحه بينهم. لكنها اقتنعت اخيرا ان خوان ليس موجودا هنا. قررت الا تفكر فيه وتلقي اهتمامها كليا على الحلبة حيث بدأ العرض الاول. وكان كناية عن دعوة للرعاة ان يلتقطوا عجلا ويمددوه ارضا ويربطوه بقوائمه الاربعة.

والعرض الثاني كان اكثر اهمية من الاول. وهو امتطاء الخيل من دون سرج. توجهت سيرينا برفقة دون البيرتو الى ممر ضيق مبني من حواجز عالية معدنية حيث يربط الحصان قبل ان يطلق داخل الحلبة. يكون الحصان معصوب العينين بمنديل وبالتالي لا يمكن ان يرجع الى الوراء، مما سيجعله يقوم برفسات عنيفة.

تسلق احد المنافسين الحواجز وشد الحبل بقوة وقفز على ظهر الحصان. في الحال، خلع احد مساعديه الرباط عن عيني الحصان

وفتح الباب بواسطة حبل. فركض الحصان بعنف في المساحة امامه آخذا فارسه في عجلة رهيبة. بالكاد تمكنت سيرينا من رؤ ية المنافس الاول لأنه اجتاز الساحة بسرعة واصبح من الجهة الثانية من الحلبة. صراخ فرح صدر عن الحضور واحتل الحماس كل واحد منهم.

شعرت سيرينا فجأة بجفاف في حلقها. هذا الفارس الوقح الذي يقوم بكل جهده كي يبقى على ظهر الحصان، كان... خوان بالذات! وراحت تنظر اليه بعينين قلقتين وهو يحاول جهده كي يحافظ على توازنه، مثل عقرب يرتخي الى أمام ثم الى وراء، لكنه كان مسيطرا على الوضع تماما.

ثم اطلق الجمهور صرخة كبيرة، لأن الحصان بعد ان قفز قفزة هائلة، وقع ارضا بكل زخمه. سيرينا اخفت وجهها بيديها خائفة ان ترى خوان مدعوسا تحت الحصان غير ان التصفيق صعق اذنيها، فتحلت بالجرأة وفتحت عينيها. كان خوان ما يزال راكبا على الحصان محاطا بفارسين آخرين. وكان يحيي الحضور ويبتسم مظهرا شجاعته الخارقة. وبهدوء خرج من الحلبة.

كانت سيرينا ترتجف في كل انحاء جسمها. فابتعدت عن الحلبة وقدماها خائرتان. وعلى بعد خطوات من الحلبة لاحظت وجود مقعد فارغ، فجلست عليه بثقل، ثم اجلست ويندي على العشب تحت قدميها. كانت مضطربة حتى اعمق اعماقها، فريسة غموض كبير وحاولت جهدها ان ترتب افكارها وخاصة ان تحلل ما حدث الآن، منذ قليل، وان تقاوم نفسها بقوة القدر....

انها تحب الرجل الذي كانت تعتقد حتى اليوم انها تكرهه!

هذا الرجل المثالي الذي مازالت ملامحه غارقة في ضباب كثيف،

اصبح له الآن وجها وفما ساحرا وانفا رفيعا وعينين سوداوين دافئتين، وخدين لوحتهما الشمس وابتسامة لا تضاهى ونكاد تذيبها. اما صوته فهو منخفض ورنان. ومازالت سيرينا تحفظ في اذنيها صدى كلماته الناعمة التي راح يهمس بها قرب عنقها وحنجرتها تلك الليلة التي امضياها في فينا ديل مار.

اطلقت زفرة نائحة وشدت يدها على جبينها. كيف كانت جاهلة حقيقة مشاعرها، وراحت تخلط الكره بالحب؟

منذ متى احبته؟

راحت تبحث في اعماق ذكرياتها. وادركت بذعر انها، منذ اللقاء الاول، شعرت نحوه ببعض الانجذاب اقوى واكبر، ينمو تحت غطاء من العدائية الواضحة. وكان يكفي ان يهدد حياة خوان خطر ما كي تعي سيرينا حقيقة مشاعرها تجاهه. وفي الوقت الحاضر كانت تخاف الا تعرف سعادة الحب من جديد.

ولدى انغماسها في افكارها نسيت مراقبة ويندي التي زحفت على العشب حتى وصلت الى حاجز القش الذي يحيط بالحلبة. ولما ادركت سيرينا الامر، كان قد فات الاوان... فقد اختفت ويندي داخل فتحة صغيرة تطل على الحلبة. ارادت سيرينا الصراخ لكن صوتها ظل داخل حنجرتها. اسرعت نحو الحلبة وراحت تحاول الدخول اليها من وراء الحاجز. اصوات مرعبة صعدت من الحضور. ولدى رؤ ية المنظر امامها، راح قلبها يخفق بسرعة.

وسط الحلبة كان خوان ممتطيا حصانا ويواجه ثورا وحشيا. وفي هذا الاستعراض كان عليه ان يبرهن عن شجاعة ومرونة ليرغم الحيوان ان يلتفت حول بيرق غرز على الجهة الثانية من الحاجز.

لكن، في هذا الوقت بالذات، لم يكن المتفرجون مهتمين بمهارة خوان. انما مثل سيرينا، كانوا مذعورين ويحدقون بالطفلة التي تجتاز الحلبة وهي تحبو. لم تكن الطفلة تعي الخطر، انما تريد لفت نظر خوان اليها، لكن خوان كان منغمسا بمهمته ومديرا اليها ظهره. اطلقت سيرينا صرخة ثاقبة، فالتفت خوان وصرخ:

«يا الهي!»

هذه الصرخة المؤلمة مزقت صمت الموت الذي كان يعم الحلبة، قفز خوان عن الحصان واسرع نحو ويندي التي كانت تزحف بهدوء. وفي هذا الوقت بالذات هجم عليه الثور. سيرينا اغمضت عينيها وفقدت وعيها.

ركض الرعاة الى الحلبة فترك الثور فريسته وهجم بصورة عمياء نحو الجمهور الملتف حوله. تجمع الناس حول سيرينا. وحملها موظفو دون البيرتو الى المنزل ووضعوها في سريرها. ثم وضعوا على جبينها المناشف المبللة وراحوا يرغمونها على التنفس. ولما عادت سيرينا الى وعيها، اطلقت زفرة اليمة من شفتيها الشاحبتين قائلة:

«خوان...»

اجابها بصوت مختنق:

«انا هنا، يا حبيبتي».

بالنسبة الى سيرينا، التي كانت مقتنعة انها خسرت اعز انسان في حياتها، كان صوته صدى آت من الفردوس، كأنها ترنيمة الملائكة... فتحت جفنيها بصعوبة ولم تفكر بكبت فرحها، بل ان بريقا قويا مزق الوشاح الذي كان يعتم نظرها.

اضاف خوان بهدوء وهو ينحني فوق سريرها:

«انت بحاجة الى الراحة. الصدمة كانت قوية عليك... مازلت ضعيفة. سآتي لأراك بعد قليل».

بيللا وكارمن احاطاها بحنان. لكن سيرينا فضلت الصمت.

حمل خوان ويندي بين ذراعيه وتوجه نحو الباب. وقبل ان يجتاز العتبة التفت مرة اخيرة الى سيرينا، ثم دخل الممر ولم تعد تسمع إلا طقطقة مهمازه.

هذا الصوت ظل يرن في اذنيها مطولا حتى غطت في نوم عميق. ولما افاقت بعد ساعات عاد الخوف يهددها. نهضت من سريرها ووضعت مئزرا عليها وراحت تفكر كم سيسخر منها خوان، لأنه لا يمكنه ان يتجاهل طبيعة عواطفها تجاهه. وهذا سيقوي عزيمته على الثأر منها.

في اواخر الظهيرة جاء خوان يتفقدها. كانت جالسة امام النافذة المفتوحة على مصراعيها تتمتع بالريح المنعشة المليئة برائحة الزهور. سمعته يدخل، لكنها لم تقم بأي حركة. اقترب منها، فشمت رائحة عطره. لا شك انه استحم لتوه.

حدثها بصوت منخفض حتى لا تفاجأ. لم تفاجأ بل ظلت محدقة في المنظر امامها.

«قالت لي كارمن انك في تحسن كبير. لكن اذا كنت لا ترغبين بالكلام اعود بعد قليل».

تنفست سيرينا الصعداء وقالت:

«بامكانك البقاء، اذا شئت. اجلس من فضلك»

جلس خوان على طرف النافذة في مواجهة سيرينا. توترت ورفضت ان تنظر اليه ولم ترفع نظرها الى اعلى من عنقه. ضغطت

على معصميها غارزة اظافر يديها.

«لا شك انك شعرت بصدمة كي تفقدي وعيك هكذا... لم نصب الطفلة بأي اذى، اليس كذلك؟»

وفي ذعر، ادركت انها اهتمت بمصير خوان اكثر من ويندي، في حال الخطر هذه. ارتعشت، فأسرع خوان الى القول:

«لكن ستصابين ببرد! هذا المئزر خفيف! اتريدين شالا سميكا اضعه عليك؟»

كتفت ذراعيها فوق صدرها وقالت:

«كلا، شكرا. لا شيء سوى اني اتذكر ما حدث بعد ظهر اليوم... اخافني الحيوان بضخامته».

«لست وحدك من فكر هكذا».

«انت تعرف، اليس كذلك؟ لماذا تخفي علي...»

اقترب منها بسرعة وسألها:

«ماذا تعنين بالضبط، يا حبيبتي؟ ماذا بامكاني ان اعرف؟»

«انت تعرف... اني احبك!»

ساعدها خوان على النهوض وجذبها نحوه وقال:

«سيرينا، اليس هناك شيء آخر يجب عليّ ان اعرفه؟»

ارخت رأسها على كتفه وراحت تسمع دقات قلبه بوضوح، انه واثق من نفسه، راح ينتظر جوابها. لقد افصحت له عن حبها لكنه لم يكتف بذلك... يريد منها خضوعا كاملا! رفعت سيرينا ذقنها وصرخت قائلة:

«بطريقة أو بأخرى، عرفت اني كذبت عليك. ويندي ليست ابنتي، بل شقيقتي. اردت ان اصيب غرورك فاستعملت هذه

الخدعة... اني آسفة...»

«يا شيطانتي الصغيرة، انت حقا آسفة!»

انحنى فوقها وغمس نظرته اللماعة في عينيها وقال:

«آه، يا حبيبتي، لقد جازيتني... تعذبت كثيرا. لكن كيف باستطاعتي الا ان اسامحك، يا حياتي؟... لا يمكنني ان اعيش من دونك؟»

عانقها وعانقته ولم تصدق مدى سعادتها.

همس خوان باذنيها في سحر ومداعبة:

«اني احبك حتى العبادة. كنت كالمجنون منذ ليلة امس، وخوفا من ان استسلم لنزواتي، كما حدث لي في فينا ديل مار، امتطيت جوادي ورحت اهيم في الصحراء».

الدموع تنهمر من عيني سيرينا وهو يعانقها بشغف وحنان. ثم قال:

«هل تسامحينني لأني جعلتك تستسلمين لي بالقوة؟ لقد تصرفت بسوء. انت التي كنت عذراء...»

اذن، اكتشف سرها منذ ذلك اليوم. لامت سذاجتها لانها اعتقدت ان عدم خبرتها بالامر ستمر من دون ان ينتبه لها. تعلقت سيرينا بعنقه لتقنع نفسها انها لا تعيش حلما بل حقيقة، ثم خبأت وجهها في صدره.

«اذن لماذا ارغمتني على التصريح لك، ما دمت تعرف ذلك؟»

مازال هناك سؤال يحيرها فتحلت بالشجاعة وسألته بخجل:

«كنت صريحة معك وارجو ان تكون صريحا معي. ما هي نواياك تجاه كابرييلا؟ هل مازلت تراها؟ ام تود ذلك؟»

دفعها بلطف واستغرب قائلا:

«كابريلا؟ في حياتي تعرفت الى كثيرات مثلها. لكنهن كن عابرات، كظلال في الليل. انت وحدك، يا حياتي، عرفت ان تحتفظي بي، والى الابد».

تأثرت سيرينا بكلامه وظلت صامتة. ثم ارادت ان تناوشه فقالت:

«هل كان يزعجك حقا لو كانت ويندي... ابنتي؟»

«طبعا! كنت اموت غيظا!»

صمتا وراحا يعانقان بعضهما البعض. وبعد ساعات عديدة، كانا واقفين امام الباب ينظران الى القمر الذي كان يضيء منزل آل فالديفيا. اطلقت سيرينا زفرة ارتياح فقال خوان:

«اذا كنت ترغبين ان اكف عن عناقك، فسأفعل. اني اشعر باني قادر ان اعيل عائلتي الصغيرة، حتى ولو اضطررت الى البدء من الصفر».

ابتعدت سيرينا قليلا ثم همست:

«وويندي... هل تقبل ان تكون جزءا من هذه العائلة؟»

«احب هذه الطفلة الجميلة حبا كبيرا وسأظل احبها مثل أولادي. لكن لم تردي على سؤالي، يا حبيبتي؟ هل تريدين برهان حب؟ سوف اذهب لرؤية جدي واقول له اني اتخلى عن جميع حقوقي في المزرعة».

قالت له بلطف:

«كلا. لنفكر بجدك ايضا... فهذا القرار سيحطم قلبه. ومن جهة ثانية...»

توقفت عن الكلام لأن خوان وضع يده تحت صدرها من جهة

القلب واحس قلبها الذي كان يخفق بسرعة هائلة. لكنها اكملت جملتها:

«... النسر بحاجة الى مساحة كبيرة ليبسط جناحيه في تحليق قوي. سنبني عشنا في هذا الوادي، وادي فردوسنا السعيد!»

روايات عبير

NOOR

HARLEQUIN -- "ABIR" – No. 106

سيد الرعاة

الصدفة خير من ميعاد... قول مأثور كثيراً ما يبرهن صدقه في حياة الناس ومصائرهم. وما حصل لسيرينا كان أكثر من صدفة وأفضل من ميعاد لأنها كانت على شفير الانهيار الاقتصادي والمعنوي عندما قذفت بنفسها في مغامرة لا يقتحمها سوى من كان يائساً... وأي يأس! غير أن القدر ابتسم لها بعيداً في البلاد التي يتوقف فيها المطر ولا تغيب عنها الشمس: في الشيلي حيث تزوجت خوان دي فالديفيا سيد الرعاة ووارث الوادي الذي يشبه الفردوس. انقذها هذا الزواج وانقذ شقيقتها اليتيمة من الضياع، لكن خوان لا يحبها، ووسط عالم عنيف وشرس تفتش سيرينا عن طريقة للفرار فالفقر أفضل لديها من الثراء بلا حب...